الفصل السادس

الرسو بيافا . بيت المقدس . القبر المقدس . بيت لحم
أريحا . الأردن . البحر الميت . الحكم
والتنفيذ . مسجد الصخرة

لا تكاد سفينة الحجاج تصل إلى يافا حتى يُفضي بخبرها في الحال تقريباً لقيم جبل صهيون الذي يرسل اثنين أو ثلاثة من الإخوان إلى والى القدس الذي يعود ومعه صك[٣٧] أمان من السلطان ، وإذ ذاك يؤذن للحجاج بالنزول إلى الشاطىء بعد كتابة أسمائهم وإرسال صورة منها إلى الوالى ، على حين يحتفظون بنسخة ثانية منها ، وبذلك يأمنون جانبهم ، أو أى مكيدة قد يدبرونها ، وحينما تطأ قدما الحاج الأرض يتلقاه جماعة من المسلمين بحميرهم التى يظل الحجاج يركبونها طوال فترة مكثهم فى الأرض المقدسة ، ويقدر ثمن استئجار الدابة بدوكين لا يزيدان أو ينقصان .

ويمضى الوالى والإخوان الرهبان مع الحجاج إلى « رامة[٣٨] » وهى مكان كبير يبعد عن يافا خمسة فراسخ حيث كان دوق جودفرى[٣٩] دى بويون قد أقام فيها خاناً للحجاج حين استيلائه على القبر المقدس ، وهو مجهز أحسن تجهيز وحافل بالغرف التى جعل بعضها للرجال وخصصوا البعض الآخر منها للنساء ، ومن ثم بقينا به يوماً واحداً ، حتى إذا انبلج صباح اليوم الثانى سافرنا مسافة ميلين إلى دير « القديس جورج » الذى يقال إن جثمانه به والذى يؤمن الناس بقتله التنين هنا ، على حين يقول البعض الآخر إنه قتله فى بيروت التى هى ميناء دمشق .

وبعد أن نمنا تلك الليلة فى مكان يبعد عن هذه الناحية بخمسة فراسخ ويتاخم قلعة تعرف بقلعة عاموص[٤٠] ، غادرناه فى اليوم التالى مبكرين وقطعنا خمسة فراسخ أخرى إلى مدينة القدس التى طالعناها على بعد أربعة فراسخ تقريباً ، حيث استطعنا أن نرى عدداً من المبانى وكذلك جبل صهيون وقلعة الملك داود والقبر المقدس وهو كنيسة مرتفعة جداً .

حينما دخلنا بيت المقدس خرج لاستقبالنا مسيحيوها من اليونان وغيرهم من الشعوب الأخرى ، وأخذونا إلى ميدان كبير أمام القبر المقدس أدّينا فيه الصلاة ، ولكنهم لم يسمحوا لنا بدخول الضريح ذاته ، ثم مضوا بنا إلى خان يشبه ذلك الخان الذى أسسه « دوق جودفرى دى بويون » ألفينا فيه وفرة كثيرة من الطعام الذى يهيئه اليونان ويتفنون فى طهيه بشتى الطرق ويبيعونه للنصارى .

لم نلبث إلا قليلا حتى أقبل قيّم جبل صهيون مع إخوانه الرهبان مستصحبين معهم عشرة أو إثنى عشر فارساً ممن يعيشون فى الدير ، فأقمنا حيث نحن فى غاية الراحة ثم ترك لنا القيّم اثنين من الإخوان عهد إليهما بملازمتنا منذ ذلك اليوم ليمكنانا من مشاهدة ما ببيت المقدس وضواحيه من المناظر . ويقع دير جبل صهيون هذا على أعلى بقعة بأحد جانبى المدينة ، وبه كثير من الأماكن التى أظهر فيها سيدنا المسيح معجزات كبرى ، كما يوجد أيضاً برج شاهق فى القبو الذى ظهر فيه سيدنا على صورة ألسنة من النيران لتلاميذه حينما كانوا مجتمعين هناك ، وكان هذا عيد العنصرة ، ويستطيع المرء أن يشاهد من هذا المكان بحر « سدوم وعمورية » المسمى بالبحر الميت الذى كان مكانه من قبل خمس مدن ؛ وتقوم أسفل هذا البرج

الكنيسة التى تجلى فيها سيدنا للقديس توما الرسول وطلب إليه أن يضع يده فى جانبه[٤١] ، كما جرت فى هذا المكان أحداث أخرى عديدة ، ويقوم عند المدخل فى وسط أحد الشوارع « بيت العذراء مارى » ، وإلى جواره — خلف الدير — يوجد المكان الذى تناول فيه سيدنا العشاء الأخير مع حواريه .

بقينا يومنا هذا حيث كنا ، فلما كانت الغداة سمعنا القداس فى القبر المقدس الذى يفتح مرة واحدة فى السنة ، وهناك أخذوا فى عدّنا وفق القائمة التى دونوها فى يافا ، فدفع كل حاج سبعة دوكات ونصف ، بالإضافة إلى الدوكين اللذين استأجر بهما الدواب ، كما دفع فى الأماكن المقدسة مقداراً معيناً من عملة صغيرة تساوى كل إحدى عشرة قطعة منها دوكا واحداً ، وبذلك يكون كل حاج قد دفع إثنى عشر دوكا ونصفاً : مكس دخول .

وبينما نحن نتأهب لدخول القبر المقدس خرج لملاقاتنا موكب من جميع أولئك المسيحيين الذين كانوا مقيمين هناك منذ السنة الماضية[٤٢]، وأعنى بهم الكاثوليك (وهم ثلاثة من الإخوان الفرنسيسكان) واليونان والمسيحيين اليعاقبة والأرمن وأهل سنتوريا والهند والأقباط — وهم ينتمون إلى سبع أمم مختلفة من النصارى .

• • •

انضممنا إلى الموكب وذهبنا إلى القبر المقدس ، وهو كنيسة ضخمة شاهقة الارتفاع بها فتحة كبيرة ينفذ منها الضوء ، وبداخلها كنيسة أخرى أصغر منها حجما وبها القبر المقدس ذاته ، ولكنه شديد الصغر حتى

أنه ليس به مكان لواقف سوى القسيس الذى يرتل القداس والخادم ، فلما فرغنا من أداء الصلاة به ذهبنا صحبة الموكب إلى جبل «الجلجلة» حيث صلب سيدنا ، ويقع على بعد اثنتى عشرة أو خمس عشرة خطوة من هذا المكان ، وهو صخرة كبيرة تقوم عليها كنيسة محلاة بالفسيفساء ، ولا يزال يرى الثقب الذى وضع فيه الصليب وكذلك الثقوب التى وضع فيها صليبا اللصين .

ولما فرغنا من الصلاة به نزلنا إلى البقعة التى مُسح فيها المسيح بالزيت ، ومن ثم إلى الحجرة التى حبس فيها قبل صلبه .

وشاهدنا بعدئذ المكان الذى عثرت فيه القديسة هيلانة على الصليب وكذلك الناصية التى أشار إليها سيدنا بأنها مركز الدنيا ، ويتصل بها سكن الإخوان الرهبان ، حيث تحفظ الآثار المقدسة ، والذى ظهر فيه سيدنا للقديسة مريم على شكل بستانى ، وتقوم عند المدخل قاعة كبيرة تتدلى فيها رايات وأعلام كثير من الملوك والأمراء المسيحيين ، ويضع الفرسان هنا أسلحتهم ، ويرى المرء كل هذه الأشياء وأكثر منها فى طريقه من هذه المقبرة وكذلك الآثار المقدسة ، ولكل شعب من هذه الشعوب النصرانية المشار إليها كنيسة خاصة به .

تركنا الموكب وسمعنا القداس ثم تناولنا غذاءنا الذى أعده اليونان لنا إعداداً جيداً لقاء ما دفعناه لهم .

وأذن فى هذا اليوم للمسلمين والنصارى أن يعرضوا علينا بضائعهم لنشترى منها ما نريد ، وأقمنا يوماً وليلة نستمع إلى التراتيل والخدمة الدينية : كل وفق طريقة بلده .

ويوجد هنا قبر «جودفرى دى بويون» ، وقد علته قبرية ذات نقش[٤٣] حفرت على حجر ، وإلى جواره قبر أخيه «بلدوين» وقد صيغ على ذات الصورة وعليه نقش آخر .

فلما كان اليوم التالى ـ وقد فرغنا من سماع القداس ـ فتحوا لنا الأبواب وأذنوا لنا بالخروج بعد أن أحصونا وأرسلونا إلى فندقنا ، ورأينا هذا اليوم الجبانة ووادى « جيبوشابات » حيث يقوم قبر العذراء مارى ، وهو قبو تحت الأرض ينزل إليه المرء بخمس عشرة أو عشرين درجاً ، ويقوم بحراسته الفرنسيسكان ، فدفعنا هنا مبلغاً معيناً من النقود ، ثم مضينا منه إلى المكان الذى أخذوا به سيدنا فى الحديقة ، وانثنينا بعدئذ إلى جبل الزيتون حيث صعد المسيح إلى السماء ، وتوجد هنا كنيسة شهيرة تضم صخرة قد انطبع عليها أثر قدمه .

كذلك رأينا المكان الذى اجتمع فيه تلاميذه واتفقوا فيه على « مبادىء العقيدة » ، ومضينا منه إلى البقعة التى هتف فيها المسيح « أبانا الذى فى السموات » ، وتجاور هذه البقعة الشجرة القديمة التى شنق يهوذا نفسه إليها .

وفى أثناء عودتنا إلى بيت المقدس اجتزنا بالمكان الذى ظل خشب الصليب محفوظاً فيه أمداً طويلا ، وعلى مقربة منه الموضع الذى رُجم فيه القديس « اسطفان » ، فدخلنا المدينة من « البوابة الذهبية » الملاصقة لمعبد سليمان ، ومررنا بالبِرْكة التى حرّك الملاك مياهها وشفى بها المرضى ، ثم شاهدنا بيتى بلاطس وكافا حيث جوكم المسيح ، ولا زالوا حتى اليوم يعدمون الناس هنا ، كما رأينا الشارع المسمى « بطريق الآلام » حيث حمل

سيدنا الصليب على كتفيه ، وهو طريق مسقوف ، ونتجمع به اليوم مياه الأمطار التى يخزنها الأهالى فى صهاريج للشرب منها ، لأن المدينة تعانى ندرة فى الماء .

ونمنا هذا اليوم فى نُزُلِنا .

• • •

حتى إذا كان اليوم التالى غادرنا بيت المقدس مبكّرين فى صحبة الحاكم والإخوان الفرسان وقصدنا « بيت لحم[٤٤] » التى تبعد مسافة خمسة فراسخ عن بيت المقدس ، فأطلعونا فى الطريق على كنيسة تشير إلى البقعة التى ظهرت فيها النجمة للملوك الثلاثة ، ثم سرنا فرسخاً بلغنا بعده بيت النبى « إيليا » ، حتى إذا كانت الظهيرة جئنا بيت لحم ، وهى بلدة صغيرة يسكنها قرابة خمسين نفساً ، وهنا نافَسنا المسلمون فى إظهار توقيرهم لها ؛ ودخلنا الدير وهو دير شهير غنى حافل بالمبانى الجميلة ، ويعيش به على الدوام ستة من الإخوان ، فلما بلغهم خبرنا خرجوا فى موكب لملاقاتنا وانطلقوا بنا فى الحال إلى كنيسة تحت الأرض هى التى ولد بها سيدنا ، وإلى جوارها المزود ، كما يوجد عند مخرجها المكان الذى ختن به المسيح . ثم شاهدنا الأقبية التى كانت مدفناً للأبرياء ، وفى هذه الأقبية المكان الذى ترجم فيه القديس جيروم الإنجيل[٤٥] ، فأقمنا به يومنا هذا ودفعنا الأجر .

رحلنا فى الغد بعد سماعنا القداس ميممين شطر البقعة التى وُلِد بها القديس يوحنا المعمدان وهى على بعد خمسة فراسخ ، وقد عاش بها القديس « زكريا » وكتب هنا مزموره[٤٦] Bene dictus Dominus Deus Israel ، ويحفل هذا المكان بكثير من الأشياء المقدسة

• • •

أقمنا فى بيت لحم طول هذا اليوم ، ثم عدنا غداته إلى بيت المقدس الواقعة على بعد ثلاثة فراسخ فوصلناها مبكرين، وقضينا هذا اليوم فى زيارة بعض الأحرام المقدسة بالقدس ، وهى بيت القديسة « أنّا » والبيت الذى أنكر فيه القديس بطرس سيدنا (ويوجد هنا أيضاً الحجر الذى سد به القبر) وبيتا القديسين : جيمس الصغير والكبير، وقبر أبسالوم الواقع خارج المدينة ، ويقال إنه حدث فى الأيام الأخيرة القليلة أنه بينما كان بعض المسلمين ينقبون عن كنز هناك إذ دوت صرخة أخرجهم القوم على أثرها أمواتاً .

كذلك رأينا نبع ماء يقولون إن تفجيره كان على يدى المسيح وأمه العذراء ، كما شاهدنا المكان الذى تعثر به سيدنا وهو حاملٌ الصليب ، ورأينا قلاع الملك داود والناحية التى غسل فيها المسيح أقدام تلاميذه ، وغير ذلك من الأماكن الأخرى المقدسة الكثيرة .

إسترحنا يوماً ثم انطلقنا مبكرين من بيت المقدس مع الحاكم والإخوان الرهبان ، وتناولنا غذاءنا على مسافة فرسخين من هنا عند القلعة والمكان المسمى « مادالون » الذى كان إرث مريم المجدلية ، ويشتمل على كنيسة ذائعة الصيت ، والمكان الذى أقام سيدنا فيه « لعازر » من بين الموتى وغير ذلك من المواقع المقدسة ودفعنا هنا رسوماً .

فلما كان المساء رحلنا وجئنا إلى مكان تابع «لمارتا» أخت مريم المجدلية ، وعمنا تلك الليلة فى بيت بالجبل الذى أبرأ فيه سيدنا المرضى الذين جاءوه بهم ، وذهبنا فى الصباح التالى إلى « أريحا » التى تبعد خمسة عشر فرسخاً من بيت المقدس ، ويوجد هنا واد كبير وسهل فسيح يشقه نهر الأردن ويمضى إلى المكان الذى عمد سيدنا فيه القديس يوحنا المعمدان ثم تعمّد عنده على يديه ،

حيث يقوم فى الماء حجر يشير إلى بقعة التعميد ، فاغتسلنا جميعاً هنا ، ولكن غرق أحد رفاقنا وكان ألمانياً . وهذا المكان أعظم الأماكن طهارة .

كان على الحجاج أن يعودوا تلك الليلة لينامو فى أريحا وليذهبوا غداً إلى Quarantana حيث صام سيدنا ، إلا أنى اتفقت مع رجل مسلم على أن يأخذنى إلى صحراء العرب الواقعة على بعد ثلاثة فراسخ حيث بشّر القديس يوحنا ، وحيث لجأ للعيش بها أول ناسك وهو القديس أنطونيوس وغيره من الآباء الطوبانيين ، ثم عدت من هناك عن طريق البحر الميت حيث كانت « سدوم وعمورة » وثلاث مدن أخرى ، أى حيث كانت خمس مدن دمرت عن آخرها من جراء خطيئة اللواط .

والماء هنا كريه تعافه النفس حتى ليعجز المرء عن وصفه ، ويقولون إن السمك لا يستطيع الحياة به ، وأن الطيور لا تطرق هذا المكان .

وقد أفضى إلىّ المسلم الذى سافر معى بعجيبة كبيرة هى أن نهر الأردن يدخل البحيرة ويخرج من الناحية الأخرى دون أن يمتزج بالمياه الآسنة بصورة تجعل المرء قادراً على الشرب — وهو فى وسط البحيرة — من مائه العذب ، وكل ما يقال عن هذا الوادى هو وجود أشجار معينة طويلة شديدة الاستقامة محملة بفواكه كثيرة تشبه الليمون ، فإذا مسها أحد ما بأصابعه ولو مسًّا رقيقاً هيّناً تفتّتت وانبعث منها دخان ، وظلت الرائحة الكريهة عالقة باليد طوال اليوم[٤٧] .

عدت فى اليوم التالى إلى أريحا[٤٨] حيث تناولت غذائى بها ، وهى قرية تسكنها مائة نسمة ، وجمعت منها بعضاً من تلك الورود النافعة للنساء وقت الحمل ، وشاهدت كثيراً من الأماكن المرتبطة بسيدنا ، ويوجد عند قمة ذلك النهر ولاية « بيثانيا » شرقى الأردن ، ونمت تلك الليلة عند الجبل الذى صام عنده

سيدنا حيث انضممت ثانية إلى الحجاج ، وهذا الجبل شاهق الارتفاع ، تتوسّطه بعض كنائس صغيرة ، وبه طريق للصعود شقته القديسة هيلانة تعظيما لهذا المكان، وبينما نحن صاعدون إذا بسيد فرنسى قد زلّت قدمه ـ وهو ذاهب لمعاونة إحدى السيدات ـ فسقط من الجبل وتناثر قطعاً على الصخور التى بسفحه لأن المكان شديد الخطورة فى تسلقه؛ ثم انحدرنا واتخذنا طريقاً آخر أسهل من الأول أدى بنا إلى نفس القمة التى حاول الشيطان عندها غواية سيدنا وتجربته ، ثم عدنا بعدئذ حتى بلغنا عين ماء قدم إليها أناس من أريحا يحملون طعاماً ليبيعوه لنا ، فبقينا هناك تلك الليلة ، حتى إذا تبلّج الصباح أخذنا جثمان ذلك السيد[٤٩] وحملناه إلى البيت المشار إليه بالجبل ودفناه ، ثم بقينا هناك بقية هذا اليوم .

* * *

عدنا صبح اليوم التالى إلى قلعة « مدالون » وإن يكن الحاكم قد تخلف عنا لذهابه إلى الصيد ، غير أنه عَهد بنا إلى واحد من فرسانه سار فى صحبتنا إلى الكنيسة التى قام فيها « لعازرُ » من بين الموتى ، فلما بلغناها طلب منا القيّم عليها أداء الضريبة ، لكن المسلم الذى كان معنا أبى دفعها إليه محتجاً بأن ذلك على غير ما جرت به العادة ، واشتد العراك بينهما اشتداداً عنيفاً حتى لقد استل القيم ورجاله السلاح ضد الفارس الذى عهدوا إليه بحمايتنا وجرحوه ، فنهضنا لنجدته وهاجمنا الآخرين وجرحنا كثيراً من المسلمين ، وانتهى الأمر بأن قبضنا على الحارس ورجاله وحملناهم أمام الوالى الذى كان قد اقترب منا إذ ذاك ، وراح يستقصى جلية الأمر ، فلما أدركه أصدر حكم الإعدام على الحارس الذى قطعت رأسه بلا معارضة ، أما بقية الأسرى الآخرين فقد أمر

بجلدهم ، فبقينا هناك حتى المساء ثم عدنا لنقام بالقدس .

فلما كان اليوم التالى سافرنا مع نفس الفارس وجئنا إلى « باثينيا » فأرونا أماكن مقدسة كثيرة ، من بينها جبل « ثابور » حيث تجلّى سيدنا ، ويقال إن هنا أيضاً الوادى الذى به قبرا آدم وحواء ، وعدنا تلك الليلة إلى بيت المقدس مارين بعدة أماكن مقدسة ، من بينها البستان الذى صلى فيه سيدنا واقتيد ، فوصلنا هذه المدينة مبكرين .

• • •

ساَوَمْتُ تلك الليلة أحد الأعلاج من أهل البرتغال على أن أعطيه دوكين إن هو أدخلنى معبد سليمان[٥٠] فقبل عرضى ، فلما كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل أدخلنى إياه بعد أن ألبسنى ملابسه ، ورأيت المعبد وهو هيكل من صخرة مفردة وكله مزين بالفسيفساء المذهبة ، وأرضه وحوائطه من أجل أنواع الحجر ، وتتدلى فى المكان كثير من المصابيح التى يخيل لرائيها أنها متصلة كلها بعضها ببعض ، وأما سطحه فمنبسط جداً ومغطى بالرصاص ، ويقولون أيضاً — وهذا حق — أنه حينما بنى سليمان هذا الهيكل كان أفخم بناء فى العالم كله فى يومه ، ثم تهدّم وأعيد بناؤه ، ولكن لا شك أنه لا مثيل له حتى فى حالته الراهنة ، ولو عرف القوم حينذاك أننى مسيحى لبادروا إلى قتلى دون توان ، فقد كان هذا المعبد منذ أمد قريب كنيسة مقدسة ، غير أن أحد المقربين إلى السلطان حمله على أخذه وتحويله إلى مسجد .

آب بى العلج الذى أخذنى إليه إلى جبل صهيون حيث كان الإخوان الرهبان فى حزن علىّ ، ظناً منهم أننى قد لقيت حتفى لعدم عودتى فى الموعد المضروب ، فلما رأونى كانت فرحتهم بى عظيمة ، وكذلك كان شأن السادة من رفاقى .

إتفقنا على أن نذهب فى اليوم التالى لسماع القداس، وأن نبقى يوماً وليلة فى القبر المقدس ، ومن ثم بلغناه عند انبلاج النهار ومضوا ففتحوا لنا الأبواب بنفس الاحتفالات السابقة، فبدأنا بالاعتراف، ثم تناولنا القربان، ونَصَّبتُ ثلاثة من السادة فرساناً للقبر المقدس، إثنان منهم من ألمانيا وثالثهم فرنسى[٥١] الجنسية. ووضعنا أسلحتنا فى المكان المعهود ، وأخذنا بعض الآثار المقدسة التى تفضّل بها علينا الحارس ، وقضينا طوال هذا اليوم والغد فى سماع القداس ثم افترقنا، واستفسرت عما إذا كان من الممكن زيارة دير « سنت كاترين » على جبل سيناء المتاخم للبحر الأحمر ، لكنى علمت أن الحراس الذين مع الجمال قد رحلوا مع سفير من تركيا ذاهب إلى سلطان مصر ، ومن ثم لم يكن من المستطاع إنجاز رحلتى ، وكنت راغباً فى البقاء هناك حتى السنة التالية إذا إحتاج الأمر إلى ذلك ، بيد أن الحارس نصحنى بالذهاب إلى قبرص لرؤية الكردينال أخى الملك العجوز ، ذاكراً لى أنه سيعطينى عهد أمان إلى مصر ، وبذلك أستطيع الوصول إلى جبل سيناء من هناك .

فعزمت أن أفعل ما أشار به .

الفصل السابع

مغادرة قبرص . رامة . يافا . بيروت
قبرص . طافور سفير إلى
سلطان مصر

رحلنا فى اليوم الثانى صحبة الوالى والإخوان الفرسان وقضينا ليلتنا بمدينة الرملة ، حتى إذا كان اليوم التالى بلغنا ميناء يافا فوجدنا السفن فى انتظارنا فركبناها ، وعاد المسلمون والإخوان إلى بيت المقدس بينما أبحرنا نحن إلى بيروت ، وقد جاء فى هذا اليوم الوالى «ناصر الدين» وروى لى ما أصاب ملك الدانيمرك وهكذا بلغنا ميناء دمشق ، ومررنا على طول الساحل بمدن صور وعسقلان وعكا التى توجد بها قلعة كان فرسان القديس يوحنا قد ارتدُّوا إليها بعد ضياع بيت المقدس من أيديهم ، وعلى مقربة منها « الناصرة »[٥٢] التى كرمت فيها سيدتنا العذراء ـ وهى تقع فى الجليل، وهكذا وصلنا إلى بيروت حيث اشترى ركاب السفن ما شاءوا من البضائع ، ورغبت أنا فى مشاهدة دمشق إلا أنهم لم يستطيعوا البقاء لانتظارى ، وقد رأيت من هنا جبل لبنان بجميع أشجاره وغابات الأرز وإن بدت أشبه بأشجار الغار ، ويقول الناس إن مار جرجس قتل التنين هنا فى بيروت ، وأنهم يجدون الآن هذه المخلوقات فى الحقول تحت الأحجار أشبه بالعقارب ولا تكبر عنها وإن تكن غير سامة ، ومرجع ذلك كما يزعمون إلى صلوات الطوبانى مار جرجس .

وقد جمعت معلومات جمة عن دمشق، وإذ لم أكن قد رأيت ذلك المكان فإننى أتجاوز عن وصفه وأتركه لمن كانوا به ، وكان رحيلنا عن بيروت فى

محاذاة للساحل الشامى حتى أرمينيا التى يقال إنه كانت بها أنطاكية القديمة وقد أرونا إياها ، ثم تقدمنا على طول الساحل فرأينا قلعة « كونخيس » حيث عاش « ميدا » وجزيرة القطيع الذهبى ، وهذه القلعة تابعة لملوك قبرص الذين ينعتون[٥٣] أنفسهم بملوك أرمينية ، ويوجد فى هذا القسم من أرمينيا سلسلة جبلية مرتفعة تعرف بالجبل الأسود ، ويقولون إن سفينة نوح استقرت هنا بعد الطوفان .

* * *

وقبالة هذه القلعة توجد جزيرة قبرص ، وتقوم فى هذا الجزء المواجه لأرمينيا بلدة « الماغوصة » القديمة التى استولى عليها الجنوية حينما أسروا ملك قبرص وحملوه هو وزوجته[٥٤] إلى جنوة ، حيث وضعت الملكة ولداً أسموه « جانوس » وهو والد الملك الحالى ؛ والمكان قليل السكان لفساد هوائه ، ويقال إن به بحيرة اسمها « كوستانزا » هى علة ضعف الصحة ، وإن تكن معظم نواحى مملكة قبرص غير صحية .

وصلنا عند انبلاج النهار وألقينا مراسينا لشحن السفينة بالبضائع ، وودّعت قائد المركب وأصدقائى ، وأنزلتُ تجارتى إلى الشاطىء ورحت أفتش عن مطايا استأجرها لنقلى أنا وجماعتى وبضائعى ، فلما فرغت من ذلك كله رحلت ميمماً شطر « نيقوسيا » التى تبعد مسافة عشرة فراسخ وهى أهم مدن المملكة وأصحّها ، وقد اعتاد الملوك عقد بلاطهم بها ، كما أن فيها مساكن كبار رجالات المملكة . وإذ كان الوقت متأخراً فقد تحتم علىّ البقاء فى فندق موجود على مسيرة فرسخين من المدينة ، وبينما أنا فى طريقى إليه انتابتنى آلام شديدة فى رأسى خِلْتُ معها أن منيّتى قد حانت ، وبلغ الألم ساقىّ ، وأحسست

به يهاجمنى فى معدتى وبطنى وأردافى وأفخاذى وركبتىّ حتى القدمين ، وظل هذا الألم ملازمى تلك الليلة واليوم التالى بطولها إلى وقت الغروب ، فما خالجنى شك فى أننى لابد وأن أموت لو بقى هذا الألم ثلاث ساعات أخرى .

* * *

سافرت تلك الليلة وجئت إلى مدينة « نيقوسيا » وكان الملك موجوداً بها إذذاك ونزلت فى أحد الفنادق، فلما أشرق الصباح ذهبت إلى كنيسة مارجرجس، وبينما كنت أستمع إلى القداس بها اقترب منى سيد من أتباع السيدة « انيز »[٥٥] ـ أخت الملك السابق جانوس ـ كانت قد أوفدته لدعوتى للمثول بحضرتها، فلما فرغ القداس توجهت مع التابع إلى قصر السيدة وأظهرت لى احترامها، وقدمت لها احترامى ورحبت بى ترحيبا حارًا ورغبت أن تعرف من أنا ؟ ومن أين جئت ؟ وما هى وجهتى ؟ وبعد محادثتها إياى طويلا أمرَت أن أقيم فى قصرها وأن يوفر القوم لى كل ما أحتاجه أنا ومن معى ، ولقد كانت هذه السيدة فاضلة جداً ولكنها غير متزوجة إذ نذرت نفسها فى شبابها أن تبقى عذراء، وكانت تحضر باستمرار مجلس الملك ، وهيأ لها نفوذها أن تدبر معظم أمور المملكة ، وكانت تبلغ الخمسين تقريباً من عمرها . فلما نِلتُ قسطى من الراحة أخذتنى فى اليوم التالى إلى الملك ابن أخيها[٥٦] وإلى أخيها الكردينال ، فقدمت لكل منهما احترامى وأحسنا لقائى وقصصت عليهما سبب رحلتى، ذاكراً أننى جئت فى المكان الأول لزيارة الملك وبلاطه، وثانياً للحصول على عهد أمان لرحلتى إلى القاهرة وجبل سيناء ، وأطلعتهما على ما معى من رسائل يزكينى فيها « الملك خوان » إلى كردينال قبرص الذى كان إذ ذاك فى إيطاليا ولكنى وجدته هنا، فوعدنى ببذل كل ما فى طوقه لمساعدتى، وقد حضر هذا اللقاء « موسين سواريس » أمير ال قبرص الذى

أبدى نحوى منتهى المودة والصداقة، قائلا إنه قشتالى الأصل مثلى ، وقد التمس الإذن من الملك والكردينال والسيدة إينيز فى أخذى معه لأنزل ضيفاً عليه ، فعارضت السيدة إينيز ولكنها استجابت بعد إلحاح ، فمضيت معه إلى داره .

ولقد ولد هذا الفارس فى « سيجوفيا » من عائلة « ثرنادييلا » ، وجاء فى رحلاته — وهو ما زال بعد صغيراً — إلى قبرص فى نفس اليوم الذى كان الملك السابق يحارب فيه جند السلطان ، وأبدى من الشجاعة فى القتال ما أنقذ معه حياة الملك ، ولكنه أخذ أسيراً معه وحمل إلى مصر[٥٧] ، وقد جرت عادة المسلمين على ألا يعتطى صهوة جواد من كان علجاً نصرانياً ، فلما كان ذلك اليوم — وقد دخلوا القاهرة وكان الملك أسيرا — جاءوا بحصانين أحدهما للملك والآخر « لموزين سواريس »[٥٨]؛ فأصدر السلطان — حين أصبحوا بحضرته وحين سمع بحقيقة الأمر — أن يساوى «موزين سواريس» بالملك فى التشريف، حتى إذا انقضت بضعة أيام — وقد أخذوا يتكلمون فى الفدية التى يطلقون بها سراح الملك — أفضى السلطان إلى « موزين سواريس » أنه إذا أراد إطلاق الملك حراً فإنه سيطلقه بناء على كلمته ، على أن يرحل ثم يعود بالفدية ، أو على الأقل يعود هو نفسه بدونها إن لم يستطع الوفاء بها ، ومن ثم وعده بذلك موزين سواريس . وحينئذ أمر السلطان بتهيئة كل شىء له ، فلما سئل على أية صورة يريد الذهاب أجاب أنه سيسافر متنكراً على هيئة شامى ، ومن ثم ألبسه السلطان لبس أهل الشام وأذن له بالسفر فرحل ، حتى إذا بلغ قبرص أخذ فى مشاورة الكردينال والسيدة إينيز ومشاوريهما ، فقرّ الأمر على إرسال بعض الفرسان إلى ملوك البلاد النصرانية وأمرائها طلباً لمعونتهم فى افتداء الملك (ولقد رأيت فى قشتالة الفارس الذى جاءها وكان اسمه يعقوب جيرى) ، ووقعت القرعة على موزين سواريس ذاته للذهاب إلى البابا برومة ، وعاد كل

فارس من هؤلاء الفرسان فى الوقت الملائم من سفارته بما استطاع الحصول عليه من مال وضمانات لازمة ، فأخذ « موزين سواريس » مع بقية أعضاء المجلس مبلغاً من الذهب قدر بثلاثمئة ألف دوكات وذهبوا به إلى الملك .

وما كادوا يصلون إلى القاهرة حتى سمع السلطان بخبرهم فأنفذ أوامره بتلقيهم واستقبالهم ، وخلع على « موزين سواريس » كثيراً من التشريف كما لو كان ابنه نفسه ، وكان خلاص الملك على هذه الصورة : هى أن السلطان أخذ الذهب بالإضافة إلى ما التزمه ملك قبرص على نفسه من أن يرسل كل سنة ثمانية آلاف دوكات ، وبذلك فُضّ الأمر وحلّت المشكلة ، وأصدر السلطان أوامره بإعداد الأشياء الضرورية وتجهيز السفن اللازمة لحمل الملك إلى بلده ، كما أظهر الملك عطفه الكبير على موزين سواريس وكذلك على كبير مترجمى السلطان ـ وكان علجاً يهودياً أشبيلياً من أهل قشتالة ـ لقاء ما أدّاه له وهو فى سجنه من الخدمات ، وقد جرت عادة الملك الحالى أن يرسل كل عام إليه مبلغ مائتى دوكات .

ولما عاد الملك إلى مملكته وتشاور مع كبار رجالاته أخذ موزين سواريس من يده وأجلسه إلى جواره ، وقال إنه لو لم يكن له ابن شرعى لوهب المملكة له ، كذلك بعث الملك إحدى بناته — وكانت أمها جارية لديه — وعقد لها على موزين سواريس وجعله قائد بحريته ووريثه .

بعد أن أمضيت أربعة أيام أو خمسة فى قصر الأميرال « موزين سواريس » بعث الكردينال فى طلبى وأخبرنى بأن أذهب لسماع القداس مع الملك ، وأنه سيأذن لى بالرحلة إلى مصر بعد تناول الغذاء معه ، فلما فرغ القداس انتحى الملك فى الكنيسة جانباً بالكردينال وعمّته ورجال

مجلسه ، وما لبث الكردينال أن جاءنى وأخبرنى أن الملك علم برغبتى فى الذهاب إلى القاهرة وزيارة جبل سيناء ، ولما كان الملك قد أعدّ العدة لإرسال سفير من قبله إلى السلطان فقد سألنى إن كنت أقبل المهمة ، فإن قبلتها تطلّب الأمر منى أن أخلص فى خدمة الملك ، وقد عرفت أن الكردينال هو الذى أشار بهذا العرض لتعظيمى ، فأجبت بأننى راض بأن أخدم الملك على هذه الصورة لأننى أعرف أنه مسيحى ومن شعب فرنسا ، وإذ ذاك بعث الملك إلىّ لتناول الغذاء معه ومع الكردينال ، وأفضى إلى بأنباء رحلتى .

الفصل الثامن

الرحيل من قبرص . دمياط . الحمام الزاجل . نهر النيل
التماسيح . الرحلة فى النيل إلى القاهرة . المماليك
استقبال السلطان المملوكى . المطربة
الأهرام . الفيلة . الزراف
لعب الكرة

• • •

سافرت إلى « الباف » ، وإذ كان الطاعون فاشياً بها فقد أمر الملك باستقبالى فى قرية بأحد الجبال لم يمسسها الطاعون بضُرّه ، فأقمت فى بيت السيد « ديجو ثينوريو » القشتالى الذى حمدته صحبته كل الحمد ، فلما انقضت ثلاثة أيام على وجودى هنا قدمتْ إلى « الباف » سفينة بها ثمانية عشر ملاحاً أعدّت لحملى أنا ورفيقى مترجم الملك ، وقد جهزت السفينة بالمؤونة الوفيرة كأنما أُعدّت لبعض آل بيت الملك ، وعليها كل ما اتُّفق على إرساله إلى السلطان .

فلما كان اليوم الثانى من وصولها أقلعتْ بنا والريح مواتية ، وظلت مبحرة أحد عشر يوماً بلغنا بعدها ميناء دمياط ، حيث يصب النيل — الذى يأتى من الجنة الأرضية — مياهه فى البحر الأبيض المتوسط ، وهناك دخلنا النهر وبلغنا دمياط الواقعة على مسافة فرسخ ونصف فرسخ من البحر ، وهى تماثل « سلامنكا » فى ضخامتها ، وحافلة بالأطعمة والكروم وشتى ضروب الفواكه والسكر .

وهذه المدينة منبسطة جداً غير مسورة وليست بها قلعة ، وهى شديدة الحرارة وإن تكن بيوتها قاسية البرودة ، ويكثر بها ابن عرس كثرة عظيمة حتى لتراه فى بيوتها وشوارعها ، ويربو عددها على ما لدينا من الجرذان .

ورأيت فيها لأول مرة الحمام الزاجل[٥٩] الذى يحمل الرسائل فى ذيله من المكان الذى تربى به إلى سواه من البقاع ، فإذا علقت بها الرسائل أطلقت لتعود إلى موطنها ، وسرعان ما يقف الأهالى على أخبار جميع من يقدمون أو يسافرون بحراً أو براً ، فيكونون بمنجاة من الأخذ على غرّة ، ولا سيما وهم يعيشون بلا وسائل دفاع عنهم ، وليس لديهم أسوار ولا قلاع .

* * *

ما كدت أصل إلى دمياط حتى ساروا بى إلى الوالى فأنبأته أننى قادم إلى السلطان ، وسألته أن يهيىء لى قارباً صغيراً ليحملنى لوجهتى لعدم قدرة سفينتى التى جاءت بى على السير فى النهر ، فأصدر تعليماته بإنزالى فى بيته حتى تتم الإجراءات الضرورية ، وبينما أنا مقيم بداره إذْ قدم بعض المغاربة قائلين إننى كتلانى ، وأنهم رأونى على مائدة لورد « كاندلور » ولديهم البيِّنة على ما يدعون ، ومن ثم استقدموا سيدين تركيين قيل إنهما كانا حاضرين إذ ذاك وفى استطاعتهما إقامة الحجة على صحة دعواهم ، فلما جاءا وتممّنا فى طلعتى بادرا فى الحال لتكذيب زعم المغاربة ، وإذ ذاك تساءلت : « لو أن التركيين قد قالا غير ماقالا فماذا يكون مصيرى حينذاك ؟ » فأجابونى أنه كان لا بد من قتلى فى الحال ، لأن أى كلام

يقوله التركى يعد حقيقة لا ترقى إليها الشبهة ولا يصل إليها الباطل .

* * *

ويوجد فى هذا الإقليم من الثمر أكثر مما يوجد فى أى بقعة أخرى من العالم .

ويخترق النيل المدينة وأعنى بذلك أحد فرعيه اللذين يبعدان عن بعضهما مسافة رحلة يوم عن حصن بابليون[٦٠] .

وتعلو المياه فى شهر سبتمبر — وقت أن كنت هناك — وتغمر القطر بأكمله ، فإذا بلغت ذروة ارتفاعها دخلت النهر كميات ضخمة من السمك قادمة من البحر فتوجد فى كل بقعة ، حتى بين المساكن .

والحرارة شديدة الارتفاع جداً ، ومن ثم فالطراز السائد فى بيوتها هو وجود فتحات تطل ناحية النهر حتى يسهل جمع المياه وحتى يمكن للأسماك أن تدخل خلال هذه الفتحات فتطفو على الأرض ويسهل صيدها .

وفى هذا النهر كثير من الحيوانات التى تعيش به تسمى بالتماسيح ، فإذا كانت فى الماء لم يستطع النجاة منها إنسان أو حيوان ، ويقولون إنها تخاف من الجاموس ، ولما كانت هذه النواحى خالية من الجسور وليس فى الاستطاعة إقامة شىء منها لسعة إمتداد الوحل فإن الفقراء يعمدون إلى امتطاء الجواميس وعبور النهر بها آمنين من كل خطر ، عجزاً منهم عن استئجار القوارب ، وقد اعتادت هذه المخلوقات أن تخرج من الماء لمسافة خمس أو ست خطوات ، فإذا كان اليوم مشمساً استغرقت فى النوم ، فإن أراد أحد قتلها استل حربة تنتهى بسهم ذى شوكات تنغرز فى اللحم إذا دخلته وتمسك به ، ويربط طرف الحربة الآخر بحبل يبلغ طوله ما بين مائة ومائة وخمسين

قامة ، فإذا قارب الصائدون الحيوان ضربوه تحت ضلوعه وهى النقطة الوحيدة المكشوفة التى فيها هلاكه ، فينغرز فيها الحديد ، وإذ ذاك يشدون الحبل عليه شداً عنيفاً ، فلا يكاد الحيوان يحس بالإصابة حتى ينفلت إلى الماء فينهكه الحبل حتى تنحل قواه ، وإذ ذاك يسحبونه إلى الشاطىء ويحملونه ويسيرون به فى المدن والقرى يلتمسون الصدقات ، شأنهم فى ذلك شأن أهل قشتالة حين يقتلون أحد الذئاب .

وهذه المخلوقات على شكل السحالى ، وتتداخل أسنانها العليا والسفلى فيما بينها ، فإذا أمسكت سيئاً ما بينها استحال إفلاته منها ، وهى تفر من كل شىء على اليابسة لأنها ليست فى أماكنها الطبيعية ، ولقد رأيت الكثير منها فى ذلك النهر .

ويقول الناس أيضاً إن فى نفس النهر ضروباً أخرى من الحيوانات — رغم أنى لم أرها — وهى فى حجم الجياد تماماً ، إلا أن فكها يكون بعرض جباهها ، وهى تخرج من الماء التماساً للكلأ فيحفر الناس لها حفراً فى الأرض ويغطونها كما هو الحال إزاء حفر الذئاب فى قشتالة وبذلك يقتلونها رغم أن هذه الحيوانات لا تضر أحداً فى الماء أو خارجه .

وماء النيل أحسن ماء فى الدنيا وكأنه ماء الجنة ولم أشرب طول زيارتى سوى هذا الماء ، على الرغم من أنه كان فى استطاعتى الحصول على النبيذ الجيد .

ويوجد فى هذا المكان طائر السمان كالذى يوجد فى قشتالة ، ويبيعه الناس كل عشرة بمؤيدى واحد ، ويصيدونها بواسطة كلاب ويضربونها بعصىّ يعلقون فى أطرافها جرسين أو ثلاثة .

بقيت فى دمياط ثمانية أيام أعدّ الوالى فى أثنائها لى سفينة لنقلى إلى القاهرة ، وهذه المراكب طويلة طول الأغربة الكبيرة ، وهى مجهزة بالحجرات التى تمتد من أحد طرفيها إلى الآخر حيث يستطيع المرء الإقامة ، ولها صنادل منبسطة لتستطيع السير فى المياه الضحلة ، وتحمل كثيراً من الحمولة ، وتجهز بقلع طويل يبلغ طول قلاع الشوانى ، ولكنه قلع ضيق مثلث الشكل يشبه قلع الغراب ، ورغم أنها تسير بالأشرعة والمجاديف ، غير أنها فى بعض الأحيان — وقت فيضان النهر — لا تستطيع التقدم بإردة واحدة إلى الأمام إلا إذا تجنبت التيار ، أو إذا وقف الرجال على الشاطىء ليقطروها بالحبال الطويلة ، ويكون عليها ثلاث طبول ، واحدة فى مؤخرتها والثانية فى مقدمتها والثالثة فى وسطها لإخافة التماسيح وإبعادها عن طريقها ، ولا يجرؤ من بها على أخذ الماء من النهر باليد ، ولكنهم يربطون وعاء برشاء طويل ، ويأخذون الماء بهذه الطريقة .

غادرت دمياط وتابعت سفرتى مبحرا صُعُداً فى النهر الذى تتناثر على شاطئيه القرى حتى تصل إلى حافة الماء ، وبلغت فى سيرى البقعة التى ينفصل فيها فرعا النهر بعضهما عن بعض ، وسرت فى أحدهما ، أما الآخر فيذهب إلى الإسكندرية .

* * *

ويوجد بالقاهرة رجال يحلقون رءوسهم ولحاهم وحواجبهم وأهدابهم ، ويحيون حياة تشبه عيش المجانين زاعمين أنهم يفعلون ذلك تطهراً ، وأنهم — فى سبيل الله — يهربون من الدنيا ومباهجها ، وأنهم من أجل هذا السبب أيضاً يحلقون كل شىء على أجسامهم .

وبعضهم يمشون وقد لبسوا القرون ، وآخرون يلطخون أنفسهم بعسل النحل ويضعون الريش ، ويحمل غيرهم أعمدة تنتهى بمصابيح تتدلى منها الأضواء ، ويمشى البعض بالقسى والسهام ويشرعونها للرمى ، وهكذا يذهبون مذاهب شتى قائلين إنهم معذبو النصارى ، ويوقرهم المسلمون توقيراً عظيما ، وقد حدث ذات يوم أن صادفت جماعة منهم فاستفسرت عن وجهتهم ، فقيل لى إنهم على وشك دخول النار مع الكلاب المسيحية ليروا أى الفريقين أسرع احتراقاً .

وبالاسكندرية وفرة من القنب يصنعون منه التيل الجيد .

تابعنا الرحلة حتى بلغنا القاهرة بعد سبعة أيام فأرسينا عند ميناثها حيث يوجد سوق الغلال الذى يغشاه المسيحيون بكثرة ، فأنزلنا متاعنا من السفينة وأمضينا هناك ليلتنا هذه ، حتى إذا انبلج صباح اليوم التالى اكترينا حميراً مجهزة خير تجهيز بالبراذع واللجم ، وهى سريعة جداً فى سيرها ، كما استأجرنا معها رجلا ليدلنا على الطريق إلى بيت كبير مترجمى السلطان الذى بلغناه بعد فترة امتدت من الفجر إلى الظهيرة ، فلما جئناه أسلمته مابحقيبتى من الرسائل ، وأبلغته تحيات ملك قبرص ، ودفعت إليه كذلك مبلغ مائتى دوكات أرسلها إليه الملك استجابة لوصية أبيه التى نصت على إعطائه هذا القدر من المال مدى الحياة لقاء الخدمات التى أداها للملك وقت أسره .

فتلقانى المترجم بالترحاب العظيم وأنزلنى فى داره ، فبقيت به يومين قبل أن أتمكن من رؤية السلطان ، وأخذ المترجم طوال هذه الفترة فى محادثتى فسألنى الكثير عن نفسى ، ولما عرف منى أننى قشتالى الأصل أشبيلى المولد امتلأت نفسه غبطة لسماعه هذا النبأ فقد ولد هو الآخر بها ، ودرج طفلا على

ترابها، إلا أنه حمل صغيراً إلى بيت المقدس مع أبيه وكان يهودياً، لكنه أسلم حين مات أبوه، وكان اسمه فى بداية الأمر « حايم » أما الآن فيدعى « صايم »، وقد أراد أن يعرف من أكون ومن أين جئت فلم أكتم عنه شيئاً من خبرى لأنتفع بخدماته ونصائحه.

لقيت ترحاباً فى بيت هذا المترجم كما لو كنت ابنه، فأذن لى أن أجالس زوجاته وأطفاله قائلا لى أن ذلك أعظم تقدير يمكن أن يقدمه لى، والواقع أنه بدى لى أننى ابن جلدته لشدة تعلق أبنائه بى، ورغم تقدم سنه ومناهزته التسعين تقريباً إلا أنه كان لايزال قادراً على الإنجاب، فقد وضعت إحدى زوجاته غلاماً أثناء إقامتى عنده، وتحت هذا المترجم أربع زوجات مسيحيات ممن يُبَتْنَ فى البحر الأسود، إذ المألوف أن ينظر إلى زواج المسلمة الأصل من مثل هذا الرجل باعتباره عيباً كبيراً.

وفى أثناء هذه الأيام الثلاثة التى انقضت قبل رؤية السلطان أرانى المترجم كثيراً من الأشياء التى تستغرق كتابتها منى الكثير، فلما كان اليوم الثالث تناول الكتب التى أحضرتها للسلطان وحملها إليه بنفسه وأطلعه عليها، فأشار بما يكون عليه الجواب، ثم أعادها مُغْلَقَةً إلىّ فى تلك الليلة، وأسرّ إلىّ - باعتبارى أحد مواطنيه - أن السلطان قد نظر فيها حتى لا أستشعر عيباً إن لم أتسلم الرد عليها فى الحال، وذكر لى ماجرت عليه العادة من قراءتها أولا، ولكنه نصحنى أن أعرض ما جئت من أجله دون أن أدع سبيلا لأحد ما أن يفهم أننى قد علمت بالأمر.

وفى صباح اليوم التالى أرسل المترجم فى تهيئة الدواب لى ولمن معى، فخرجنا عند بزوغ الشمس إلى قصر السلطان، وتمكنا قبل وصولنا إليه من

أن نصيب حظاً من الطعام والشراب ونحن في الطريق ، إذ يخرج الباعة حاملين الموائد وعليها الطعام المطبوخ ، وآخرون يبيعون الفاكهة ، وسواهم الماء إلى غير ذلك من الأشياء الكثيرة ، ووصلنا إلى المسجد الجامع وهو بناء رائع يستلفت النظر ، وإن يكن في البلاد النصرانية مايبزه حسناً .

ثم جئنا إلى ميدان فسيح يعج برجال على ظهور الجياد والخيم المجهزة بالسلاح ، وعلمنا بوجود فرسان أكثر من هؤلاء عدداً خارج المدينة ، إذ هذا هو اليوم الذي يجلس السلطان فيه للحكم بين الناس ، ولا أستطيع أن أصف عدد الرجال المسلحين مابين فرسان ومشاة ، ولعل ثمت جدوى في الإمساك عن ذلك لأنني لا أريد رواية شيء يصعب تصديقه رغم أن كل شيء في هذه الجهات يقال ويعتقد .

وصلنا إلى باب مقام السلطان وتركنا دوابنا وصعدنا الدرج إلى المدخل ، وهذا الدهليز يبلغ في حجمه حجم «ثيلاديال» تقريباً ، كما أن الشوارع مكتظة بالسابلة ما بين رائح وغادٍ من مكان إلى آخر ، وعلمت أن هؤلاء هم المماليك الذين نسميهم نحن « بالمتبربرين[٦١] الأعلاج » ممن يشتريهم السلطان نقداً في البحر الأسود ومن جميع الأماكن التي يبيعهم فيها المسيحيون ، فإذا وصلوا إلى هذا المكان اعتنقوا الإسلام وشرع القوم في تعليمهم الدين ، وتثقيفهم على ركوب الخيل والفروسية والرمي بالقوس ، ثم يختبرهم رئيس الأطباء ، وتجرى عليهم الجوامك والإقامات ويبعثون بهم إلى المدينة . ولا يستطيع أحد أن يصير سلطاناً أو أميراً أو ينال شيئاً من التشريف أو الوظيفة إلا إذا كان من هؤلاء العلوج ، كما لا يتأتى لأحد من المسلمين ـ أولاد الأحرار ـ أن يركب حصاناً خوف الحكم عليه بالموت ، بل يذهب المماليك وحدهم دون سواهم بكل أمجاد الفروسية .

أما أبناؤهم فينالون تشريفاً أقل منهم ودون هذين : الأحفاد ، ثم يصبحون بعد ذلك مسلمين أحراراً ، كل ذلك بغيـة زيادة عدد المسلمين . ومن ثم فإنهم يسمون بمكثرى شرع محمد .

ولا يتمتع النساء بمثل هذا الامتياز ، ويؤثر المسلم الزواج من مسيحية دون مهر على الاقتران بمسلمة مهما كانت ضخامة مهرهـا ، لاسيما إذا كانت مسلمة حرة .

* * *

وباستمرار السير فى الشوارع وصلنا إلى باب كبير أحكموا رتاجه بالأقفال ، فلما فتحوه لنا اجتزناه إلى ساحة فسيحة غاصة بالكثيرين من الفرسان الذين انتظموا صفاً إلى الجدران ، ثم فتحوا لنا باباً آخر أدى بنـا إلى ميدانٍ اصطفّ فيه الفرسان ، ثم فتحوا لنا باباً ثالثاً وجدنا أنفسنا بعده فى ميدان غيره ، وقف فيه رجال من الزنوج وبأيديهم الهراوات ، فطلب إلىّ كبير المترجمين التريث حيث أنا مع مرافقىّ حتى يعود ، ثم ما كاد يغيب حتى عاد وقادنى عبر أحد الأبواب إلى ميدان فسيح قد وقف فيه كثير من الفرسان على الصورة السالفة ، وكان فى وسط الميدان خيمة فخمة كبيرة قد بولغ فى زينتها أعدت كى يتناول السلطان فيها غذاءه ويقيم فيها للقاء من يجيئون لتحيته ، كما أقيم على مقربة منها فسطاط ومصطبة عالية عليها مقعدٌ يتبوأه السلطان .

وأخبرنى كبير المترجمين أن أنتظر فى وسط هذا الميدان ، وأنبأنى أن السلطان سيخرج وسيمر علىّ معـه ، وإن أفضى إلى بأنه لن يظهر لى أى انتباه لأن هذه عادتهم فى امتهانهم النصارى .

وبينما أنا واقف حيث أنا إذا بهم يفتحون باباً كبيراً ، وإذا بالسلطان

يخرج منه على ظهر جواده ، وقد تقدمه ابنه ماشياً مع قرابة مائتى فارس، ومر على مقربة منى ثم جلس على المقعد المشار إليه .

كان السلطان قد أطلق من الحبس منذ أيام قلائل أحد أبناء دواداره وكان قد خلف أباه ، وكان شديد الثراء يملك كثيراً من الذهب واللآلئ والأحجار الكريمة وغير ذلك من الأشياء الغالية الثمن ، وقد عمد الإبن فى إكبار هذه المناسبة ولعودته إلى عطف السلطان عليه إلى أن أرسل له حصاناً أسود بطرز زركش ، كما حلى السرج واللجام بالذهب أيضاً . وكان فى قربوس السرج ياقوتة يقال إنها تزن ديناراً ونصف دينار مصرى وتبلغ فى الحجم حجم البرتقالة ، كما كان فى قربوس السرج الخلفى ثلاث ياقوتات بحجم بيضة الدجاج، وسيف أحدب يساوى ذهباً كثيراً ، أما مايتدلى منه فكان من الحرير الدمشقى الأبيض الذى حلى بطرز من اللآلئ الغالية .

ثم جاءنى كبير المترجمين وأخبرنى بأنه يجب على أن أقوم بتقبيل الأرض قبل اقترابى من السلطان ، ثم أخذ الرسائل التى أحملها ومس بها رأسى وفى للتحية ثم رفعها للسلطان ، ولما كانت هذه الكتب مكتوبة بلغة أجنبية فقد قرأها عليه باللسان التركى إذ لايوجد أحد فى البلاط يتكلم غير هذه اللغة . ويقولون إن هذا نظام متبع حين اختار الترك الشريعة الإسلامية منذ حين وأنهم يفعلون ذلك تشريفاً لهم .

* * *

إستفسر من السلطان عن ملك قبرص وعمه الكردينال وكذلك عن « موزين سوارز » وآخرين من رجال المملكة ، فلما أجبته على ما سأل ذكر لى سروره بإجابة ماتمسات الملك التى كانت تتلخص فيما يلى :

كان الملك قد أرسلنى إلى السلطان ملتمساً منه ألا يرسل المماليك كل سنة ـ كمألوف عادته ـ لجمع الجزية لأنهم يكلفون الملك نفقات باهظة لقاء أن يبعث الملك الجزية فى مدى أربعة أشهر ، ويسأله زيادة على ذلك أن يقبل السلطان الجزية على شكل عبك بالثمن الذى تقدر به فى القاهرة ، كما يرجوه أن يأذن له ببيع ملحه الذى كان مصدر دخل كبير فى بلاد الشام دون أن يدفع ضريبة على ذلك البيع ، فقبل السلطان كل هذه المطالب .

كذلك أصدر السلطان تعليماته بتوفير مسكن مريح لى إلى جانب كل ما يلزمنى ففعلوا ما أشار به ، ثم أعطانى فى ذلك اليوم — على مألوف عادته — خلعة فوقانية للملك قبرص كمظهر من مظاهر تبعيته للسلطان ، وهى عبارة عن ثوب أخضر زيتونى وأحمر قد حلى بالذهب ، وبفرو سمور .

ثم نزل السلطان من مقعده وجاء إلى الخيمة حيث حياه القوم وتناول غذاءه ، وإذا ذاك استأذنته فى التغيب هذا اليوم .

بينما كنت هناك دخل مايقرب من مائة رجل ومعهم مسلم طرحوه أرضاً وأخذوا فى جلده وضربوه بالعصى مائتى ضربة على بطنه وكتفيه ، وقد علمت فيما بعد أن القضاء فى الجرائم ينفذ فى حضرة السلطان .

* * *

ولما عدنا إلى هذا المكان لم نر أحداً ممن رأيناهم من قبل سوى جماعة السودان ، فانحدرنا من هناك إلى الميدان الفسيح الذى خلى ممن كانوا به من علية القوم ومن الخيم ، ولم يبق به سوى الفقراء وبأيديهم الغرابيل وهم ينخلون الرمال ، فسألت عن معنى ما أرى ، فعلمت أنهم من الزعر الذين جاءوا يلتمسون شيئاً من الفتات المتساقط على الأرض من ذلك الجمع الكبير من الرجال .

شغلنا هذا اليوم حتى غروب الشمس فى العودة إلى محل إقامتنا ، فلما كان اليوم التالى أقمنا مستجمين ، ورتبت إرسال رسالة السلطان إلى ملك قبرص فى ذلك المركب الذى كان راسياً بدمياط ، على أن يعود إلىّ فى مدى شهرين عزمت أن أمضى أثناءهما إلى دير «سانت كاترين» على جبل سيناء .

* * *

بقيت بالقاهرة مدة تقرب من الشهر بعد إنفاذى رسالة السلطان إلى الملك، شاهدت خلالها كثيراً من الأشياء التى تعتبر غريبة على شعبنا ، والواقع أنى كنت مجدوداً إذ اتخـــذت من كبير المترجمين مرشداً لى ، إذ كان يسرّه تحقيق كل رغبة لى ، ولقد ركبنا ذات يوم فى الفجر إلى « المطـرية »[٦٢] التى يأخذون منها البلسم ، وهى على بعـد فرسخ من المدينة ، ولم نبلغها إلا وقد انتصف النهار رغم شدة سرعة دوابنـا ، ويمكن أن يقال إن مسكننا كان يقع فى وسط المدينة ، ومن هـــذا يستطيع المرء أن يتبين مقدار سعتها .

والمطرية بستان ضخم مسور بحائط، وفيها الحديقة التى ينمو بها البلسم[٦٣]، ويبلغ اتساعها قرابة ستين أو سبعين قدماً مربعاً ، وفيها تنمو شـجرة البلسم التى تشبه كرمة بلغت من العمر عامين ، ويجمعه القـوم فى شهر أكتوبر ، حيث يأتى السلطان فى احتفال كبير لجمع الزيت ، ويقال إن المعصـور منه لا يكاد يصل إلى نصف مكيال من مكاييلنا ، ولـكنهم يعمدون إلى أخذ الغصون ويغلونها فى الزيت ويوزعون ذلك على العالم باسم البلسم ، حتى إذا فرغوا من جمع الجذور بدأوا فى الحال فى زراعة الأرض ، ويأخذون شتلات معينة خاصة ويغرسونها فى التربة ثم يروونها

بالماء الذى تدفق لسيدتنا العذراء فى هذه البقعة حينما فرّت هى وابنها إلى مصر ، وهذا المكان من الأماكن المقدسة عندنا نحن المسيحيين ، وإذا روّى القوم النباتات بهذا الماء وجدوها فى اليوم التالى قد ضربت بجذورها فى الأعماق ، وكثيراً ما حاولوا ريّها بماء النيل أو بغيره من المياه فجفت جذورها فى الحال .

وحين يخرج المرء من هذه الحديقة يصادف شجرة تين ضخمة جداً تنتج تين فرعون ، وهو أحمر اللون ، وفى داخل الجذع فجوة ضئيلة أشبه ما تكون بالكنيسة الصغيرة ، ويقولون إن هذه الشجرة قد فتحت نفسها بنفسها حيث اختفت بها سيدتنا وابنها حين كانا فى خوف من إلقاء القبض عليهما .

وبينما كنا عائدين إلى القاهرة على نهر النيل أبصرنا حدائق كثيرة وبيوت الأثرياء الفخمة ، واستغرقت العودة منا هذا اليوم بأكمله ، ولم نبلغ مسكننا حتى كان الليل قد انتصف .

• • •

ذهبنا فى اليوم التالى إلى مخازن غلال[٦٤] يوسف التى تقع فى الصحراء على بعد ثلاثة فراسخ من النهر ، وعلى الرغم مما يقولونه من وجود الكثير من هذه المخازن داخل البلد إلا أنه يوجد منها ثلاثة فقط : إثنان كبيران وواحد صغير ، وكلها مخروطية الشكل قمتها إلى أعلى ، وهى أعظم إرتفاعاً من البرج الكبير بأشبيلية ، وحينما يجتاز المرء الباب يلقى حائطاً متصلا بآخر يكوّنان شكلا مخروطياً يصل إلى القمة ، وبه نوافذ عدة ، فإذا كانت الدواب محمّلة بالغلال صعدت وألقت أثقالها من خلال هذه الطاقات حتى تمتلىء المخازن

إلى آخرها ، وليس من شك فى أننى أعتقد أنه لا يوجد فى العالم اليوم مثل هذا البناء ، الهائل ولم أر له شبيهاً من قبل أو بعد .

. . .

عدنا هذا اليوم إلى القاهرة ، فلما كان اليوم التالى ذهبنا لمشاهدة المكان الذى كانوا يحتفظون فيه بالفيلة فرأينا منها سبعة ، ولونها أسود وحجمها أكبر من حجم الجمل ، أما الأرجل الأمامية والخلفية فقوية حتى ليخيل لرائيها أنها قد صبت من الرخام ، وأقدامها مستديرة ذات أخفاف قوية جداً ، ويقال إن أرجلها يتصل بعضها ببعض ولكن ليس بها نخاع ، والعينان حمراوتان وصغيرتان جداً بحجم المليم ، والذنب قصير كذنب الدب ، وتشبه الأذنان الدرع ، والرأس أشبه بجرة كبيرة من تلك الجرار التى تسع ست خروبات [٦٥] ، ويبلغ طول كل ناب أربعة أشبار ، أما الفم فصغير جداً ، ويتدلى من الشفة خرطوم طوله ستة أشبار تستطيع هذه الحيوانات أن تمده وتقبضه حسب إرادتها ، وتلتقط به كل ماتريد أكله وتلقيه فى فمها ، أو ترفع به الماء إذا احتاجته ، ويظهر أن هذه الحيوانات ذكية جداً ، فهى مدربة على القيام بالحيل والألعاب ، وتعمد فى بعض الأحيان إلى ملء خراطيمها بالماء وترش به أى شخص أرادت ، كما أنها تلعب بالرمح وتقذفه فى الجو ثم تمسكه ، كما تقوم بألعاب أخرى كثيرة .

فإذا كان الجو حاراً أخذها القوم عند انبلاج الفجر ودفعوها إلى النهر لتبترد وإلا عجزت عن كبح جماح نفسها ، وجلدها سميك جداً ، وإذا جرحت وضعوها حيث يشرق القمر عليها فتبرأ فى اليوم التالى .

ويحمل سائقوها شوكة حديدية مثبتة إلى مدراة يضربونها بها خلف

أذنها ، ويوجهونها أنّى أرادوا ، لأن جلدها الذى حول الأذن رقيق جداً حتى ليؤذيها وقع الذبابة عليه ، ويطعمونها الحبوب والشعير كما يفعل القوم بالخيول عندنا ،

ويقال إن القوم بالهند يقيمون على ظهورها قلاعاً تسع ستة عشر رجلا ، فإذا خرجوا للقتال كسوا أسنانها بالصلب ، ويزعمون أن هذه الحيوانات تعيش حتى تبلغ من العمر أرذله .

* * *

عدنا هذا اليوم إلى مسكننا بعد أن طالعنا كثيراً من المشاهد الغريبة ، وذهبنا فى اليوم الثانى لرؤية حيوان يسمونه بالزرافة[٦٦] ، وهى كبيرة كبر الوعل ويبلغ طول قدميها الأماميتين قامتين[٦٧] ، أما الخلفيتان فلا تتجاوزان الذراع ارتفاعا ، وشكلها العام أشبه بالوعل ، وهى مرقطة ذات خطوط بيضاء وصفراء ، ورقبتها تسامق فى طولها طول البرج ، وهى حيوان أليف جداً ، وإذا قدموا إليها الخبز باليد خفضت رأسها حتى تعمل مع رقبتها قوساً كبيراً ، ويقول الناس إن هذا الحيوان يعمر طويلا ، وأن هذه الزرافة بقيت هنا فى هذا المكان أكثر من مائتى عام .

* * *

ذهبنا هذا اليوم لمشاهدة مدينة القاهرة ، وهى مقسمة إلى ثلاثة أقسام ، يسمون أولها بحصن بابليون ، والثانى بالقاهرة ، والثالث بمصر ، وإلى جانب مدينة بابليون حيث يشقها النهر تقوم فى الماء ثلاثة أعمدة ذات خطوط معينة وكتابات قديمة ، فإذا كان الوقت شهر سبتمبر وقد ارتفع النهر[٦٨] أقيم الحراس عليها حيث يرقبون كل ساعة زيادة المياه ، فيذكرون مقدار الارتفاع

لمنادين على الأرض ينطلقون فى المدينة كل ساعة ، يعلنون فى صوت عال مدى الزيادة فى النهر ، فإذا بلغت الزيادة أقصاها عرف الناس إلى أى حد يستطيعون بذر الحب ، وعما إذا كانت السنة خصبة أم مجدبة ، ويقال إن تشييد هذه الأعمدة كان أول عمل نهض به القوم فى مدينة بابليون .

وفى الضاحية القديمة من هذه المدينة كثير من البيوت الرائعة والحدائق المتناثرة ، وتكثر الزروع حتى على الشرفات ، ويزرع القوم الأشجار الضخمة ، كما يوجد العديد من الكهوف والصهاريج لخزن مياه النيل .

وعدنا هذا اليوم إلى مسكننا فاتفقت مع المترجم على أن نذهب فى الغد لمقابلة السلطان ملتمساً منه الإذن بالذهاب إلى جبل سيناء ، ومن ثم مضينا فى الصباح إلى القصر السلطانى ، غير أننا وجدنا السلطان قد غادره للصيد ، فرحلنا فى إثره ولحقنا به على مسافة فرسخ واحد من المدينة وهو فى موكب رائع ، وحوله — كما خيل إلىّ — أكثر من خمسة أو ستة آلاف فارس والعدد الكبير من البزاة والفهود ، وقد تناول السلطان غذاءه فى هذا اليوم فى السرحة ، ثم لعب هو والأمراء لعبة اعتادوا عليها على الصورة الآتية ، هى أنهم يضعون كرة [٦٩] فى وسط الساحة ، ويقف بضعة آلاف فارس على أحد الجانبين ويرسمون خطوطاً على الجانبين أمامهم ، ويمسك كل منهم مضرباً بيده وتكون يده قابضة على رمح ، ويهجم الجميع على الكرة فى وقت واحد ، ويقصد أحد الجانبين دفعها عبر الخط ، على حين يحاول الفريق الآخر عمل ذلك بنفسه ، فإذا تمكن أحد الجانبين من دفعها عبر الخط كان هو المنتصر ، وقد حاول أحد اللاعبين فى هذا اليوم إعاقة ابن السلطان فاستل سيفه وحاول قتل خصمه ، فحدث إذ ذاك هرج شديد لم يهدأ حتى جاء السلطان وصرفهم .

الفصل التاسع

الرحلة إلى سيناء . تجارة الموميات . دير سنت كاترين

التفكير فى الرحلة إلى الهند . نيكولو دى كونتى

يروى قصة حياته . البحر الأحمر

. . .

التمست من السلطان فى هذا اليوم أن يأذن لى فى الذهاب إلى جبل سيناء فاستجاب لرجائى ، وأمر أن يصحبنى أحد مترجميه ، وأمدّنى بثلاثة جمال لى ولمن معى دون أن يقبل عليها أجراً ، وحينئذ ودعته ورحلت بعد يومين لم يتهيأ لى خلالهما فى الواقع كثير من الفراغ لشتى الغرائب العجيبة التى تنبغى رؤيتها ، ونظراً لشدة حرارة الجو فقد كانوا يأتوننى فى كل صباح بجرة ماء للشرب يعالجونه معالجة خاصة ويضعون به بذوراً معينة تشبه القنب ، فيصبح الماء — والحق يقال — صالحاً كل الصلاحية للشرب ، وقد جرت عادتهم أن يشربوه فى الصيف قبل تناول العشاء .

أعدّ مترجم السلطان لى كل ما يلزمنى وزكانى لدى الترجمان الآخر الذى كُلِّف برافقتى ، حتى إنه كتب بنفسه كتاباً يوصى فيه بى خيراً ، وبعث به إلى بطرك الإسكندرية المتخذ القاهرة مقاماً دائماً له ، والذى يختار بنفسه القيم على دير سنت كاترين بجبل سيناء[٧] ، ثم رحلنا عن القاهرة واجتزنا صحراء مصر التى لا حياة فيها ، ولقينا فى ذلك مشقة كبرى واكتنفنا الخطر الجسيم ، إذ كانت الحرارة قد بلغت من الشدة حداً عجبت منه كيف يستطيع أى امرىء احتمالها ، ويقولون إن هـذه الصحارى تحفظ الموميات التى هى أجساد من

يموتون بها ، ذلك أن الجثث لا تتحلل بفضل جفاف تلك الجهات الشديد ، فلا يحدث غير إمتصاص الرطوبة تاركا الجثث كاملة جافة ، وقد خلت الصحراء من الطرق والمسالك لأن الريح تأتى عليها فتطمسها ولا تبقى منها أثراً ، كما أنها تنقل الرمال من مكان إلى آخر مكونة تلالا ضخمة تورد سالكيها موارد العطب والهلاك ، ويستعين القوم فى اجتيازهم إياها بالبوصلة كما هو الحال فى البحر ، ولا يصادف المرء أثراً للسكان فيما بين القاهرة وجبل سيناء ، وتحمل الجمال كل شىء تحتاجه هى والمسافرون على السواء .

استغرقت الرحلة إلى جبل سيناء خمسة عشر يوماً ، وهذا الجبل شديد الارتفاع يقوم منفرداً ، ويقع على بعد نصف فرسخ تقريباً من البحر الأحمر ، وكان على قمته فيما سبق دير حفظت به جثة القديسة كاترين ، ويقول الناس فيما يقولون إنه حدث فى إحدى السنوات قحط عظيم جداً فى الطعام ومجاعة أدت بالرهبان — الذين كانوا يكابدون المشقة الجسيمة فى تسلق هذه المرتفعات — إلى قصد مصر ، تاركين وراءهم الدير والجسد المقدس بلا حراسة ، وإذ ذاك تجلت لهم القديسة كاترين المباركة وأمرتهم بالعودة من حيث جاءوا ، مخبرة إياهم أنهم سوف يجدون ذخيرة ومكاناً ملائماً للعيش ، وطلبت إليهم أن يبنوا ديرهم ويدفنوا جسدها حيث يجدون كومة كبيرة من الحنطة ، فانكفأ الرهبان عائدين من حيث جاءوا ، ووجدوا عند سفح الجبل تلا ضخماً من الحنطة ، فشكروا الرب والقديسة كاترين العذراء على النعم التى واتتهم ، وشيدوا ديرهم الذى لا يزال موضعا من أبرز المواضع . ثم تسلق الرهبان الجبل وجاءوا بالجسد فى احتفال فخم ، وسجوه فى الدير الواقع عند سفح الجبل حيث لا زالوا يعيشون حتى اليوم ، وإن لم يهملوا ما على الجبل ذاته لكثرة الأماكن

المباركة به ، فقد كان البقعة التى ناول الله فيها موسى الألواح، والتى تجلى له فيها فى العليقة، وهذا هو أيضاً المكان الذى أمر الربّ فيه موسى أن يضرب الصخر بعصاه فانفجرت المياه التى لا تزال تتدفق إلى اليوم منحدرةً إلى السفح .

أما الدير الأدنى فبناء لطيف يضم بين جوانحه قرابة خمسين أو ستين رجلا ما بين راهب وخادم ، وبه كنيسة حسنة البناء قد أقيمت على النمط البيزنطى ، ويرقد جثمان القديسة كاترين تحت المذبح الرئيسى ، ولم تتسنّ لى رؤية الجسد ، إذْ لم تجر عادتهم على إطلاع أحد عليه ، كما أن المكان فى الواقع غير مهيأ لرؤيته ، ولكن ظهر لى من مشاهدة حجمه أن الجسد لابد أن يكون أطول شبراً من قامة أطول إمرأة يمكن أن توجد فى العالم اليوم .

كذلك يوجد بيت يحتوى على جثث محنطة لرجال معينين ، والناس ما بين قائل إنها أجساد فرسان زاروا ذلك المكان المقدس وقضوا نحبهم به ، ومن قائل إن بعض فرسان اليونان حُملوا إلى هناك بعد موتهم حيث البقعة مباركة . ويستمد الدير جزءاً كبيراً من دخله من جميع بلاد اليونان ، كما أن أحد كبار سادة « كانديا » ترك له حين موته دخلا يقدر بأربعة آلاف دوكات ، ولكن نظراً لشدة بعد المكان ، ولما يتطلبه إمداده من أموال ضخمة فإن جزءاً من الدخل ينفق فى الصرف على مبنى فى القاهرة يعيش فيه بطرك الإسكندرية الذى يقوم بتجهيز كل شىء لقاء دفع الدخول له ، كما أنه هو الذى ينتخب البطرك الذى يبعث به إلى الهند الكبرى حيث يوجد « پرستر جون » ، وقد حدث زمن وجودى بالقاهرة أن مات البطرك السابق فاختار [بطرك الإسكندرية] خليفة له وبعثه إلى هناك .

. . .

بعد أن قضيت ثلاثة أيام بالدير حدّثتني نفسي عما إذا كان في الإمكان الذهاب إلى شبه القارة الهندية وانتحيت بقيّم الدير جانباً حدّثته فيه على انفراد بهذه المسألة ، فأنبأني أن إحدى القوافل — وهي وسيلة الاتصال بتلك النواحي — توشك على القدوم في مدى يومين أو ثلاثة أيام ، وإننا نستطيع أن نستمد الأخبار منها عن مدى إمكانية النهوض بهذه الرحلة ، وإن يكن هو نفسه معارضاً إياها كل المعارضة ، وقد وصلَتِ القافلة المرجوّة بعد أربعة أيام أو خمسة ، وجاءت بعدد كبير جداً من الجمال لا أستطيع أن أذكر شيئاً عنه لأنني لا أحب أن أظهر بمظهر المسرف في كلامه ، وكانت هذه القافلة تحمل من بلاد الهند جميع أنواع البهار واللآلىء والأحجار الكريمة والذهب والعطور والفيل والببغاوات والقطط ، إلى جانب أشياء أخرى كثيرة يوزعونها في كافة أرجاء الدنيا ، فيذهبون بنصفها إلى القاهرة حيث تُحمل منها إلى الإسكندرية ، ويمضون بالنصف الآخر إلى دمشق ومنها إلى ميناء بيروت .

ذهبت إلى ساحل البحر الأحمر الذي يبعد مسافة فرسخ عن جبل سيناء لمشاهدة القافلة التي وَجدْت بصحبتها أحد البنادقة واسمه « نيكولودي كونتي »[٧١] ، وهو سيد عريق المولد ، وقد جاءت معه زوجته وابناه وابنته الذين ولدوا كلهم بالهند ، ويبدو أنه أسلم هو وإياهم بعد أن حُملوا قَسْرًا على حَبِّ دينهم في مكة المقدسة عند المسلمين ، ولم يكد « نيكولا » يراني حتى قدم إليّ سائلا إياي عمن أكون؟ وماذا أفعل هنا؟ وما هي وظيفتي ؟ فأنبأته إنني جئت من إيطاليا ، وعشت في بلاط ملك قبرص وإنني مبعوث من قبله إلى السلطان المملوكي الذي أذن لي بالمجيء إلى هنا ، وأخبرته أنني مجمع العزم على الذهاب إلى الهند ، فأفضى إليّ في الحال بوجوب التخلي عن تلك المحاولة التي لا يمكن إنجازها مهما صدقت النية مني ، ولما رأى عزمي وإصراري على تنفيذ فكرتي فقد طلب

منى أن أفضى إليه بحقيقة أمرى، ذاكراً أنه يستطيع أداء خدمة كبرى لى بإتيانى عما ينبغى علىّ عمله لإنجاز مرادى وتحقيق إربتى ، وأكد لى إننى أستطيع الثقة به تمام الثقة إذ أنه مسيحى مثلى ، كما وعدنى أن يقص علىّ أحداث عمره وكيف جاء إلى تلك النواحى ؛ فلما تبينت مكانة الصدق فى قوله وأدركت فطنته وحصافته أنبأته أننى من أشراف أسبانيا ، وقد جئت منها إلى القبر المقدس ، ومن هناك مضيت قُدما إلى القاهرة بغية رؤية جبل سيناء ثم الشخوص إلى الهند، فلما وقف « نيكولودى كونتى » على ما كان من خبرى أظهر السرور العظيم وقال لى :

« إعلم أنه فى الوقت الذى كان فيه تيمور بيك حاكما كنت بالإسكندرية ومعى بعض أموال أبى ، فذهبت منها إلى القاهرة ، وكنت إذ ذاك فى الثامنة عشرة من عمرى ، وقد أدى سوء إدارتى وقلة خبرتى — كشاب حدث — إلى ضياع ما لدى من المال ، فاستبد بى اليأس ، وخجلت من العودة إلى موطنى صفر اليدين متربا ، ومن ثم يممت وجهى شطر البلد الذى كان تيمور بيك يحكمه وأقمت سنة فى بلاطه، ورحت ألتمس الوسائل التى تمكننى من الذهاب إلى شبه القارة الهندية ، وعلمت أن كل شىء مأمون لامتداد سلطان تيمور بك إذ ذاك من البحر الأحمر إلى الهند التى لم أكد أبلغها حتى أخذونى لمشاهدة « بريسترجون »[٧٢] الذى هش كثيراً لمقابلتى ، وخلع على كثيراً من عطفه ، وزوجنى المرأة التى هى معى الآن وأنجبت منها أطفالى هؤلاء ، ولقد عشت فى الهند أربعين سنة كنت أتحرق شوقاً خلالها للعودة إلى وطنى وأصبت حظاً كبيراً من الثروة ، فلما مات تيمور بك وقسمت مملكته وتمزقت شذراً رتّبتُ الرحلة إلى البحر الأحمر ، وأعددت العدة للذهاب إلى مكة وإلى البقعة التى أنا فيها الآن ، وحصلت من أجل هذا

الغرض على كتاب أمان من السلطان ، وقد أمضيت عامين فى الحصول عليه حتّى بعث به إلىّ أخيراً ، فلما وصلت أنا وزوجتى وأطفالى إلى مكة خيّرونا بين الردّة عن ديننا أو القتل ، وكنت أنا نفسى مستعداً للاستشهاد ، ولكننى كنت أعرف أن زوجتى وأبنائى يؤثرون الردة على الموت ، ومن ثم رأيت قبول هذا العرض مؤملا أن يخلصنا الله فى الوقت المناسب ، لكن لا بد من أن السلطان كان ضالعاً فى كل ما جرى لكى ينال نصيبه فيما سلبوه منى . هذه هى قصة حياتى وخبر أمسى ، وإننى لأستحلفك بالله وبالحب الذى تكنه له ، وألتمس منك باعتبارك مسيحياً من أهل وطنى أن لا تركب هذا المركب الجنونىّ ، نظراً لبعد الشقة ، وجسامة المشقة ، وفداحة الخطر ، فالإقليم تسكنه أجناس غريبة ليس لهم ملك يطيعونه ، ولا قوانين يخضعون لها ، ولا حكام يأتمرون بأمرهم ، فكيف تتوقع أن ترحل بلا عهد أمان ؟ وإذا اعترم أحد قتلك فمن يخاف إن نفذه ؟ أضف إلى ذلك فساد الهواء واختلاف المطعم والمشرب عما ألفته فى بلدك ، وستلتقى بأقوام غلاظ لا يستطيعون ضبط أنفسهم ، وعلى الرغم من وجود أشياء نادرة يمكن رؤيتها هناك إلا أنها لن ترضيك الرضاء التام ، فسترى هناك أكواماً من الذهب واللآلىء والأحجار الكريمة ، ولكن ما جدواك وانتفاعك بها إن تكن على حيوانات ضارية ؟ » .

• • •

أخبرنى « نيكولا دى كونتى » بهذه الأمور وغيرها ، وانتهيت أخيراً ألا جدوى من التفكير فى هذه الرحلة ، وأدركت إدراكا جلياً أن عطفه الشديد علىّ وما انطبعت عليه نفسه من رحمة حملاه على إسداء تلك النصيحة إلىّ ،

كما ظهر لى بوضوح أنه التزم جادة الحق فى كل ما رواه لى ، ومن ثم كففت عن مشروعى ، وعدنا إلى الدير وبقينا به ثلاثة أيام ، واستعد صحابى للسفر ما بين قاصد القاهرة وميمم وجهه شطر دمشق ، ولم أفعل شيئاً خلال تلك الأيام الثلاثة سوى زيارة الأماكن المختلفة والذهاب إلى البحر الأحمر والبقعة التى دخل منها أبناء إسرائيل البحر حين كان فرعون فى أعقابهم حيث جف البحر وأضحى أرضاً يابسة وانشطر الماء شطرين ، ورأينا هناك جزيرة تسمى ششونة يقال إنه جاء منها اليهود الذين يُسمُّون فى قشتالة بأبناء ششونة Abens-susenes.(٧٣) .

الفصل العاشر

العودة من سيناء . نيكولا يتابع قصته
القديس جوت

سافرنا من جبل سيناء واستأذنت قيِّم الدير ورهبانه فى الرحيل ، فمنحونى شعار القديسة كاترين ، وهو عبارة عن عجلة ذات أسنان ذهبية ، فأعطيته — لفقرى — نقوداً وتركت أسلحتى ، واتخذت طريق صحبة أفراد القافلة ونيكولا دى كونتى ، وقلّ ما فعلته خلال هذه الرحلة سوى الإنصات لأعماله فى الهند وأمدّنى بكثير من الأنباء التى دوّنها بخط يده ، فاستفسرت منه عن خبر « بريسترجون »[٧٤] ومدى سلطانه ، فأفضى إلىّ بأنه كان حاكماً عظيما يقوم على خدمته خمسة وعشرون ملكا وإن لم يبلغوا شأو الولاة الكبار ، كما يدين له الكثيرون ممن لايخضعون لشريعة ما ، ولكنهم يتبعون الطقوس الوثنية .

ويقال إن فى الهند جبلا شاهق[٧٥] العلو يعتبر تسلقه أمراً بالغ الصعوبة ، حتى لقد غُمَّ على من عاشوا فى سفحه — فى الأزمنة القديمة — معرفة شىء ما عمن يقطنون فى ذراه ، كما أن هؤلاء الأخيرين كانوا لا يدرون شيئاً من أمر ساكنى سفحه ، إلى أن شُقّ طريق ومُدّت سلسلة تربط بين القمة والسفح يتعلق بها من يريدون الصعود أو النزول ، ويوجد على قمة الجبل سهل كبير يزرع القوم به القمح ويحصدونه ، ويربون فيه الماشية ، ويحفظون به الحبوب ؛ كما تكثر به البساتين

المكتظة بالفواكه والمياه الوفيرة ، وقصارى القول إنه حافل بكل ما هو ضرورى للانسان فى حياته . ويوجد على أحد جانبيه دير شهير جداً جرت العادة أن يبعث إليه من هم أهل ليكونوا قساً بإثنى عشر رجلا عجوزاً ، ممّن عرفوا بعراقة الأصل والتمسك بالفضيلة لينتخبوا «بريسترجون» جديداً إذا خلى مكانه ، ويقومون بهذا العمل على الصورة التالية ، ذلك أن القوم يرسلون أكبر أبنائهم وبناتهم للخدمة به ، ويزوجونهم بعضهم من بعض ، وينجبون أبناء يزوّدونهم بكل ما تتطلبه حياتهم ويمدونهم بالجياد والأسلحة والأقواس والسهام ، ويثقفونهم فى فنون الحرب والحكم ، ويعقد الناخبون مجالسهم هناك يومياً ، وهم يرقبون الشخص الذى يتخيلون فيه من النجابة ما يؤهله أكثر من سواه لتولى الحكم حينما يخلو من « بريسترجون » ، ثم يتفقون فيما بينهم على الشخص الذى سوف يختارونه مكانه ، حتى إذا مات الحاكم فى النهاية عمد فرسانه إليه فوسدوه النعش وحملوه إلى الجبل جرياً على عادتهم وجللوه بثياب الحداد ، فيراهم الناخبون وهم مقيمون فى أماكنهم العالية ، وإذ ذاك يأخذون الشخص الذى وقع عليه الاختيار ويُسلمونه إلى الفرسان بديلاً من السلطان الراحل الذى يرفعون جثمانه ويدفنونه فى الجبل بما يليق به من الاحترام ، بينما يمضى الآخرون بمولاهم الجديد وهم يعلنون خضوعهم له وسط الاحتفالات الفخمة والأفراح العظيمة ، وحينذاك يأتى الناس على شتى طبقاتهم واختلاف فئاتهم حاملين الهدايا ، فيحضر البعض اللآلىء ، والبعض الآخر الأحجار الكريمة الغالية القيمة أو الصولجانات الذهبية ، كل حسب المنطقة التى يقيم فيها أو التى ولد بها .

* * *

ولقد أخبرنى نيكولا دى كونتى أيضاً أن أحسن أنواع القرفة تنمو فى جبل سيلان هذا ، وأضاف إلى ذلك أن به نوعاً من الفاكهة أشبه بالقرع الكبير المستدير ، بداخله ثلاثة فواكه منفصل كل منها عن الآخر ، ولكل منها مذاقها الذى يميزها عن سواها .

كذلك أنبأنى نيكولا عن شاطىء بحرى لا يكاد سلطعونه يصل إلى الأرض ويتعرض للهواء حتى يستحيل إلى حجر ، وأشار أيضاً إلى إقليم من أقاليم الجماعات الوثنية به مكان شهير للحج ، وقد حدث أن وضعت عنده إمرأة توأمين ما كادا يخرجان من بطن أمهما حتى حجبا عيونهما بأيديهما قائلين إنهما يكرهان العيش فى عالم شرير كهذا العالم ، وانطلقا إلى جبل عاشا به حتى وافتهما منيتهما ، فظهرت فى الموضع الذى مات به أحدهما بحيرة كبيرة ، وفى مكان موت الآخر بحيرة طين ضخمة ، يلقى الناس فيهما بأنفسهم ، ويموتون بهما قائلين إنهم ماضون للخلود .

وهناك أناس آخرون يرغبون فى أن يخلفوا بعدهم ذكرى بأسمهم حتى يُعرف أولادهم بأبناء الرجال الصالحين ، فيعمدون إلى صنع جهاز أشبه بالمقص الكبير ، ثم يضعون رءوسهم بين شقيه ويطبقونهما بالأقدام فتجز رقابهم (٧٦) .

كذلك أنبأنى نيكولا دى كونتى أنه رأى قوماً يأكلون لحوم البشر ، فكان هذا أغرب ما طالعته عيناه ، وليكن مفهوماً أن هذا تقليد وثنى ، بَيْد أنه شاهد نصارى يأكلون لحوم الحيوانات نيئة دون طهى ، فإذا فرغوا منها تحتم عليهم أكل نوع معين من العشب ذى رائحة عطرية نفاذة وذلك فى مدى خمسة عشر أو عشرين يوماً ، فإن تأخروا عن تلك المدة ابتلوا بالجذام .

* * *

وعلمت أيضاً أن « بريسترجون » أراد أن يعرف أين منابع النيل ، فأعدّ السفن وأنفذ الرجال ، وجهزهم بالطعام الوفير ، وأمرهم أن يعودوا إليه بخبر منبعه ، فسافروا وشاهدوا كثيراً من البلاد والشعوب الغريبة والحيوانات غير المألوفة ، مما يعد أعجوبة من الأعاجيب الكبرى ، فلما استنفذ هؤلاء الرجال كل ما معهم من المئونة انكفئوا عائدين دون الوقوف على ما جاءوا من أجله ، وأصبح « بريسترجون » منكسر الخاطر كل الانكسار ، ثم راح بعدئذ يستشير من حوله عما إذا كان فى إمكانه إرسال رجال لا يهلكون إن عدم الطعام ، فأمر قومه بأن يأخذوا أطفالا صغاراً منعهم من شرب اللبن ونشّأهم على السمك النيئ (وهو أمر ليس بالمستغرب إذ يروى أولئك الذين يذهبون إلى غينيا أن الوثنيين فى هذه الجهات لا يأكلون سوى السمك النيء) ، فلما اشتد عودهم وبلغوا مبلغ الرجال جهزهم بالقوارب والشباك ، ونهاهم أن يعودوا إليه — مهما كانت الظروف — دون الخبر اليقين عما خرجوا من أجله ، فانطلقوا لمطيتهم مصعدين فى النهر ، مارين بأقطار شتى ، وجهدو ألاّ يتصلوا بأحدٍ مخافة أن يحال بينهم وبين وجهتهم ، حتى بلغوا بحيرة أشبه ما تكون بالبحر فى اتساعها ، فصاقبوا الشاطىء وداروا حوله كله عساهم يجدون منبع الماء الذى تخرج منه هذه البحيرة ، فجاءوا فى النهاية إلى فتحةٍ تدخلها المياه ، فتابعوا سيرهم حتى وصلوا إلى سلسلة جبلية كبيرة شاهقة الارتفاع شديدة الانحدار ، تبدو وكأنها قد نحتت من الصخر ويعجز الطرف عن إدراك قمتها ، وبها فتحة واسعة يتدفق منها الماء .

وإلى جوار هذا الجبل وعلى اتصال به سلسلة أخرى تطاوله ارتفاعاً ، ويسير على العين رؤية الماء وهو منحدر منها ؛ فاعتزم الرحالة أن يرسلوا أحدهم لتقرير

الخبر ، غير أن الذى صعد الجبل رفض ـ كما يقولون ـ العودة أو حتى الرد على الأسئلة بعد أن شاهد مابداخله ، وإذ ذاك بعثوا بآخر سواه فكان شأنه شأن سابقه ، فلما رأى الآخرون ذلك ، وأنه من المستحيل عليهم أن يصيبوا من الخبر فوق مالديهم خلفوا هذين الاثنين وراءهم على الجبل بعد أن عجزوا عن ردهما ، وانكفؤوا عائدين سالكين الطريق الذى قدموا منه ، وقصوا على ملكهم كل ماجرى لهم ، وأنبأوه أنه ليس وراء ما وصلوا اليه من كشف ، بعد أن اتضح لهم أن الله لايريد أن يعرف الآدميون أكثر مما يعرفون ، وأنه ـ سبحانه ـ أغلق دونهم السر على هذه الصورة .

* * *

كذلك ذكر « نيكولادى كونتى » أنه شاهد قوماً على الفطرة لم تجر عادتهم على أخذ مهر من زوجاتهم حين اقترانهم بهن ، لكن إذا حانت منية الرجل قبل زوجته صار لزاماً عليها حرق نفسها على الهيئة التى يحرق بها الوثنيون جثث موتاهم ، أما إذا جاء الزوجة أجلها أولا فلا إثم على الزوج ولا جناح عليه إن لم يحرق نفسه ، وحجتهم فى ذلك أن المرأة خلقت لخدمة الرجل ولم يخلق الرجل لخدمتها ، وإن هلك الرأس فلا قيمة للتابع الذى لايستحق أن يذكر حتى باللسان .

وإذا مات الرجل وضعوا جثمانه فى المكان الذى أعد لحرقه ، ثم تبرز المرأة فى أبهى زينتها قائلة إن ذلك لزفافٍ أحسن من الأول ، وأنها ستصحب زوجها إلى الأبدية فى البقعة التى يكون بها ، وتعم الفرحة الناس ويقبلون على الغناء ، وتشاركهم هى وأهلوها هذا السرور ، ويتساءلون عما إذا كان هناك من يريد أن يبعث معها رسالة لمن فى العالم الآخر وهى موشكة على المضى

إليه فى رفقة بعلها ، ثم يجردونها من ثيابها ويلبسونها ثوباً قاتماً أشبه بالكفن ، وينشدون فى أثناء ذلك المراثى والأغانى الحزينة ، بينما تطوف هى عليهم جميعاً مودعة إياهم ، وترقد إلى جوار رجلها موسدة رأسها ذراعه اليمنى ، ويقولون هم فى الختام أشياء كثيرة أهمها أن الزوجة يحق لها أن تعيش طالما تكرمها هذه الذراع وتدافع عنها ، ثم يضرمون النار فى كليهما فتمضى إلى هلاكها قريرة العين مطمئنة النفس .

وثم مكان آخر يمارس القوم فيه نفس العادة ولكن مع شىء من الاختلاف ، وذلك أنهم يسألون المرأة حين عقد الزواج عما إذا كانت تريد أن تحرق أم لا ، فإن قبلته كانت عليها طاعة التقليد المذكور آنفاً ، أما إن رفضته كان عليها أن تقدم مهراً ، فإذا مات بعلها أقيمت نفس الحفلة ، حتى إذا جاء وقت الحرق وضعوا مكانها غطاء رأسها ، وتنازلت عن مهرها لورثة زوجها .

وينظر القوم إلى من يرفضن الحرق على أنهن زوجات شريرات غير شرعيات ، ويقال إن أمثال هؤلاء قليلات جداً ، حتى إن واحدة رفضت أن تحرق فغادرت البلد خجلا ، وجاءت لتعيش فى القاهرة حيث رآها نيكولادى كونتى بعسا .

* * *

وأخبرنى نيكولادى كونتى أنه مازال معه أشياء كثيرة ومقادير ضخمة من اللآلىء والأحجار الكريمة رغم امتداد يد النهب والسرقة إليه ، ولكنه كان أشد حرصاً على كميات العقاقير الطبية التى كانت معه بكثرة لاتقدر قيمتها ولقد أرانى ياقوتة عظيمة القدر ، وكذلك قطعة مستديرة من الخوص بلغت من الرقة حداً يضارع أرق أنواع الحرير ، وقد سألنى أن أدله — إن رده الله سالماً إلى بلاد النصرانية — عن أحسن الأسواق إقبالا على تجارته ، فأخبرته أن

الإمبراطور كان فى حرب ضد ملك بولندة ولم يعد إلى بلاده إلا منذ أمد قريب خالى الوفاض إلا من ثروة تافهة ، وأن فرنسا أفقر من هذا من جراء حروبها الدائمة ، وأن القوم فى إيطاليا — وهو أدرى منى بذلك — لا يشترون شيئاً قط إلا ليعيدوا بيعه ، وزدت على ذلك بأنه يبدو لي أنه واجد فى إسبانيا خير سوق تنفق فيه تجارته ، لاسيما من جراء ثروة مليكنا العظيمة ، ولأننا نخرج على الدوام من جميع حروبنا منتصرين ولم نعرف الهزيمة قط ، وذكرت له أن أهلها موفورو الثراء ، وأنهم أكثر من غيرهم تقديراً لهذه الأشياء . ومن ثم عقد عزمه على الذهاب إلى إسبانيا .

وسألته عما إذا كان قد تأتى له أن يرى وحوشاً على هيئة آدمية كالتى يروى البعض أخبارها ، فيذكرون أن هناك رجالا ذوى ساق واحدة وعين واحدة ، أو أقواماً لا يزيدون عن ذراع طولا ، أو طوالا كالرمح ، فأجابنى بأنه لم يصادف قط شيئاً من ذلك ، ولكنه رأى وحوشاً على هيئة موغلة فى الغرابة ، فقد شاهد فى إحدى البلاد الوثنية فيلا كبير الحجم أبيض كالثلج فى لونه وهو أمر جد عجيب ، لأن الفيلة غالبا ما تكون سوداء ، وهم يشدونه بسلاسل من الذهب إلى عمود ، وينزلونه منزلة الأرباب والآلهة ، كذلك رأى حماراً جاءوا به إلى بريسترجون لا يزيد عن كلب السباق حجما ولكنه متعدد الألوان ، وكذلك كثيراً من الحصن المقرنة وغيرها من الحيوانات التى يستغرق وصفها أمداً طويلا ، كما أنبأنى أنهم يقيمون أبراجاً على الفيلة التى يستعملونها عند خروجهم للقتال .

* * *

أما « بريسترجون » وقومه فكاثوليك صالحون ومسيحيون طيبون كما فى كل ناحية أخرى ، ولكنهم لا يعرفون شيئاً عن كنيستنا الرومانية ولا يخضعون لحكمها ، ويقال إن هذا الملك موقر جداً ، حتى لو أن أعظم

رعاياه ارتكب عملا يستحق عليه الموت فإنه يبعث إليه خادماً برسالة يأمره فيها بالاستسلام للقتل على يد هذا الخادم ، وإذ ذاك يستجيب هذا العظيم لذلك الخطاب ، وسرعان ما يخفض هامته ويستقبل الموت .

وأخبرني نيكولادي كونتي أيضاً أنه رأى سيداً جليلا جاء بهدية كبيرة من الذهب إلى بريسترجون وكان فخوراً كل الفخر بما أحضره إليه ، وأسرف في الكلام متباهياً أن لم يسبقه أحد ما القيام بمثل هذا العمل ، مما حمل بريسترجون على أن يصدر أمره في الحال بقتله ، قائلا إن هذا القتل هو أجلُّ ما يستطيع أن يكافئه به ، وأن الموت ليس بالقليل لهذا السيد .

* * *

وعرفت أيضاً أن الناس في تلك النواحي بارعون كل البراعة في فنون السحر ، وقد رآهم دي كونتي وهم مبحرون في البحر الأحمر يتشاورون مع الشياطين ، وأنبأني أنه شاهد عن بعد شبحاً أسود مبهماً يتحرك على طول الصاري الأكبر لإحدى السفن ، وإذا ذاك ناشد البحارة الشبح السكون وسألوه « ماذا ترى من أمر رحلتنا ؟ » فأجابهم الشبح « ستلقون ستة أيام هادئة هدوء الموت ، يكون الجو خلالها أشبه ببحيرة من الزيت ، ولكن يجب أن تهيئوا أنفسكم لأيام تبلغ فيها العواصف ذروتها » .

وقد وصف دي كونتي سفنهم بأنها أشبه بالبيوت الكبيرة ولكنها ليست مجهزة أبداً كسفننا ، فهي ذات قلاع تتراوح ما بين عشر قوائم عشر قلعاً وبداخلها صهاريج كبيرة من الماء لأن الرياح ليست قوية جداً ، وإذا كانوا في البحر لم يخشوا شيئاً من الجزر أو الصخور ، وتحمل هذه السفن شتى أنواع

المتاجر التى تتسلمها القوافل منهم من جـدة حيث يتخذونها ميناء يفرغون به شحناتهم.

وأخبرنى دى كونتى أن مكة أضخم من أشبيلية مساحة ، ولا تخضع لأى حاكم إلا لصاحب شرعهم الذى يعتبرونه باباهم ، كما أنهم ينظرون إلى السلطان كأنه إمبراطور ، وبالمدينة مسجد من أعظم المساجد فيه جسد محمد [صلى الله عليه وسلم] ، وقال بعض الهنود الذين جاءوا إلى هناك من أثيوبيا أيضاً أنهم استطاعوا سد مياه النيل الذى يجرى من الهند إلى الحبشة ثم ينساب فى جميع أرجاء مصر حتى يبلغ البحر الأبيض المتوسط ، والذى ينقسم إلى فرعين يبلغ أحدهما البحر قرب الإسكندرية ويصل الآخر إلى دمياط ، فإذا توقفت هذه المياه عن الجريان أجدَبَ القطر وهلك سكانه أجمعين .

* * *

وعلمت من نيكولا دى كونتى أن بريستر جون كان يستبقيه على الدوام ببلاطه ، مستفسراً منه عن العالم المسيحى ، والأمراء وأقطارهم ، وما يشنونه من الحروب ، وقد أتيح لنيكولا أثناء إقامته هناك أن يرى بريستر جون ينفذ مرتين سفراء من قِبَله إلى الأمراء المسيحيين ، وإن لم يسمع عما إذا كان « بريستر جون » قد تلقى أية أنباء منهم ، إلا أنه رأى الاستعدادات التى اتخذها بريستر جون للوصول بجيشه إلى بيت المقدس ، والرحلة إليها أبعد كثيراً من الرحلة إلى أوربة .

* * *

وقد رأى دى كونتى الكنيسة التى يرقد بها جثمان توما الذى بشر بين الهنود وهداهم للنصرانية ، كما أشار أيضاً إلى ما يحدث إبان ارتفاع النيل من تساقط البرد الوارد من الجنة الأرضية والذى يسمونه بعطر الصبار ،

وحدث فى زمن القديس توماس ـ حين راح يبشر بالنصرانية ـ والناس منصرفون عن دعوته أن نزلت بالنيل شجرة ضخمة جرفتها المياه إلى هذا المكان ، فمضى الناس إلى حاكمهم والتمسوا منه أن يقوم بنفسه ويشاهد أعظم معجزة فى الدنيا وهى أكبر شجرة صبار رأتها العين ، فنهض الملك فى الحال ، فلما أبصرها أمرهم بحملها على الثيران ولكنهم عجزوا عن تحريكها ، وإذ ذاك أشار بقطعها ولكن الآلات لم تعمل فى خشبها ، وكان القديس توماس الرسول موجوداً هناك حينذاك ، فأخبرهم أنهم إذا تعمّدوا وآمنوا بالرّب — مُبْدع هذه المعجزات وصانعها — فإنه وحده سوف يرفعها بنفسه ويحملها إلى حيث شاءوا ، فأجابه الحاكم أنهم سوف يؤمنون جميعاً بالله إن فعل ذلك ، وإذ ذاك رسم القديس توماس الصليب ، وأمسك بالشجرة وحملها إلى الناحية التى أشاروا عليه بها . فلما رأى القوم هذه المعجزة تعمّدوا عن آخرهم وتنصروا ، وحينئذ أخذ القديس الشجرة ونشرها ، وأقام كنيسة اتخذ سقفها منها ولا يزال جثمانه بها حتى الآن ، كما لا يزال الهنود حتى اليوم يقدسون الرسول توماس تقديساً عظيما ، حتى أنهم يأخذون تراب الناحية المدفون بها ويصنعون منه كرات صغيرة يحملونها على الدوام فوق صدورهم ، قائلين إن فى تناول حبة واحدة من هذا التراب غنية عن تناول القربان إذا لم يستطيعوه لحظة موتهم ، وقد أعطانى نيكولادى كونتى خمس حبات أو ستا ، أعتقد أننى لا زلت محتفظاً بها إلى اليوم .

وأهل القارة الهندية أشدّ سمرة منا ، ولكن الأحباش أكثر منهم اسمراراً ، وتظل هذه السمرة فى الازدياد حتى نبلغ الزنوج السود الذين يعيشون عند خط الاستواء الذى يسمونه بالمنطقة الحارة .

الفصل الحادى عشر

الوصول إلى القاهرة. قصة بطرس الرندى .
الجلوس للحكم بين الناس . الحياه
فى شوارع القاهرة

. . .

استغرقت رحلتنا خمسة عشر يوماً نظراً للمشقة الكبرى التى صادفتنا فى القيام بها ، بيد أن النشوة التى أحسستها وأنا أنصت إلى ما أفضى به إلىّ نيكولودى كونتى من الأخبار الشائقة أذهَبَتْ عن نفسى كل إحساس بالجهد الذى عانيته فى السفرة ، حتى إذا تهيأ لنا الدخول إلى القاهرة اتفق الرأى بيننا على أن نلتقى كل يوم فى كنيسة «سانت مارتا» مثوى جثمان الطوبارى القشتالى المعروف باسم بطرس الرّندى الذى سأشير إليه فيما بعد .

أتاحت الضرورة عاينا تنسيق هذا الترتيب بيننا لأننى كنت ماضياً للإقامة مع كبير مترجمى السلطان ، على حين أنه كان على نيكولودى كونتى أن يُفتش له عن سكن بين المسلمين ، ولما بلغت دار مضيفى هشّ لى وتلقانى بفرح شديد ، كما لو كنت ابناً له خرج من صلبه وقد آب إليه بعد طول غياب .

وفى اليوم التالى مضى « نيكولودى كونتى » لمقابلة السلطان وشكى إليه عدم اكتراث الأهالى بعهد أمانه ، كما شكى إليه الأسلوب الذى اصطنعوه لإرغامه على الإسلام ، وذكر له أنهم سلبوه ما معه ، فاستمع السلطان إلى ذلك كله وقد استبد به الضيق ، وبذل جهده فى استرضاء خاطر دى كونتى بما أولاه إياه من عطف كثير حتى لقد جعله كبير مترجميه ، منزلا إياه نفس منزلة كبير المترجمين الآخر ، ومنحه داراً يقيم بها وأقطعه أملاكا بالقاهرة .

فلما كان اليوم التالى قدم دى كونتى إلى الكنيسة التى اتفقنا على التلاقى بها ، وأفضى إلىّ بجميع ما جرى بينه وبين السلطان وما فعلوه له ، وأنه — وقد أصبح يشغل وظيفة تابعة للسلطان — أضحى قادراً على التجوّل فى البلد كيفما شاء وعلى زيارة الموانئ البحرية ، ومن ثم فأمله كبير أن تُبْلِغه معونة الرب هو ورفقته البلاد المسيحية سالمين ، وإذ عرف أننى ماض إلى البندقية سألنى أن أحمل بضع رسائل معينة إلى من هناك ، ورغب فى الوقوف على اليوم الذى أعتزم فيه الرحيل ، فأنبأته أننى شققت على نفسى بكثرة السفر ، ولا بد لى من اللبث حيث أنا مدة تقرب من عشرين يوماً أو ثلاثين ، وهذا هو ما فعلته ، ولم أشغل نفسى خلال هذه الفترة — إلا قليلا — بغير مشاهدة مناظر القاهرة فى رفقة نيكولودى كونتى وكبير المترجمين ، وأعنى به مضيفى القشتالى .

. . .

وقص علىّ مضيفى ذات يوم ما كان قد جرى بين مولاه السلطان الراحل وبين قشتالى يدعى بطرس الرندى كان فى أصله قرصاناً يتحرّم فى البحر ، فكثر التفتيش عنه فى تلك المياه ، غير أنه هُزم فى أحد الأيام وأسرته سفينة إسلامية ، فلما أصبح فى يد المسلمين عارضهم فى بعض الطريق قرصان قشتالى آخر وكسرهم ، واستولى على المركب وفيه بطرس الرندى الذى عرفه القرصان [القشتالى] ، وإذ كان يعلم ما لبطرس من ذيوع الشهرة وعظيمها فقد رأى فك قيده وتزويده بسفينة ومبلغ من المال لقاء قطعه العهد على نفسه بملازمته إياه على الدوام ومرافقته الجماعة أنّى سارت ومحافظته على وعده هذا . فأجابه بطرس الرندى بما لَقِيَتْهُ تلك الفكرة فى نفسه من استجابة وترحيب ،

غير أنه اشترط عليه ألاّ يرفعا سيفاً فى غير وجه المسلمين ، وألا يهاجما النصارى قط برًّا بقسم أقسمه من قبل على ذلك ، فرضى الكتلانى بما أراده بطرس ، واتفق معه على هذا المسلك ، ثم قدما إلى جزيرة رودس ، حتى إذا أعدّا بها كل ما يلزمهما فى مخاطرتهما ركبا البحر مستهدفين قتال المسلمين، وأسرا كثيراً من شوانيهم ، واشتدّ الخوف بالمسلمين حتى لقد كفّوا عن مهاجمة المسيحيين ، ودوت شهرتهما بصورة أفزعت منهما المسلمين حتى لكأنهما كانا أميرين من أكبر أمراء النصارى يتحرّمان فى البحر .

واستمرت الحرب وسارا على نهج اختطاه من أنهما إذا عدما أحداً يسلبانه فى البحر ألقى أحدهما مراسيه براً وطرق البلاد بينما أخذ الثانى فى حراسة السفن ، وفى ذات يوم من الأيام أرسى الكتلانى فى دمياط بغية الهجوم عليها ، بيدأن جموعاً كثيفة من المسلمين نهضت لقتاله ودَفْعه ، حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت وسُدّت أمامه السبل وأحيط به من كل جانب ، فلما شاهد بطرس الرندى من سفينته ما حاق بالكتلانى بادر لساعته ميمّما شطر الساحل قاصداً نجدته ، لكنّ المسلمين كروا عليهما بجموعهم الكثيفة كرة عنيفة فوقعا فى أيديهم وحملوهما إلى السلطان الذى ما كاد يعلم أنهم قد جاءوه بهذا القرصان الشهير الذى أنزل الخراب الكثير بالمسلمين حتى فرح فرحاً شديداً ، وراح يسأل بطرس الرندى عما إذا كان هو نفس الرجل الذى طالما أضرّ بالمسلمين ، فلم ينكر بطرس ذلك ، فعاد يستفسره عن السبب الذى من أجله سلك هذا السمت ، فأجابه بطرس بأن الذى حمله على ذلك هو أن المسلمين أعداء الدين ، وهل كان يدور بخلد السلطان أن يدع بطرس المسلمين فى راحة وينهب المسيحيين ؟

وحينذاك رسم السلطان بمجازاة بطرس بما فعل ، وإظهارا للعدل الإلهى رسم بأن يجب بطرس الرندى عقيدته ، وأن يعترف بخطاياه ، وأن يعتنق الإسلام وبذلك يعفو عنه السلطان ويهبه عطفه ، بيد أن بطرس الرندى أجاب بأن كل غُنم قد يصله به السلطان لا يعوضه — مهما ضخم — عن خسران روحه ، فلما رأى السلطان ذلك الإصرار منه أمر بقطع رأسه هو وصاحبه، فلما رأى الكتلانى الموت دانياً منه بادر إلى إعلان إسلامه ، ومن ثم جاء بطرس الرندى إلى السلطان سراً وقال له « مولاى: سأسلم إن مكنتنى من الثأر لنفسى بقتل رفيقى هذا » فاستجاب له الملك مسروراً ، فانتحى بطرس الرندى جانباً بالكتلانى وقال له « يا صديقى نحن لا نستطيع الآن تخليص نفسينا لأن السلطان قد أجمع العزم على قتلنا حتى ولو نبذنا ديننا ، فإن كان الأمر كذلك فدعنا نتلقى الشهادة من الله غفراناً لخطايانا وجباً لآثامنا » ، فرأى الكتلانى الصواب فى ما قاله بطرس ، وعلته الفرحة ، وسرعان ما استسلم للموت على يد بطرس الرندى الذى قال له السلطان حينئذ : «لقد أوفيت بعهدى ذلك فأوف بعهدك لى » فأجابه « أيها السلطان لم أفعل ذلك إلا إنقاذاً لروح زميلى إذ بلغ الضعف بجنانه حداً حمله على قبول الإسلام ، أما الآن فافعل بى مابدا لك»، فأجابه السلطان « أخلص فى خدمتى ،وافعل ما آمرك به ، وصاحبنى فى القتال ، وعلىّ أن أهبك حياتك» ، فأجابه بطرس الرندى «على ألا تحارب النصارى»، فرضى السلطان وقال له « أعدك ألا أضعك موضعاً تحارب فيه المسيحيين ، ولكننى موليك أمر جميع من فى خدمتى من النصارى ، وخالع عليك من الخلع كثيراً إن أنت أخلصت الخدمة لى » ومن ثم قيد نفسه بعهده .

وأمر السلطان بإعداد بيت له وأنفذ إليه من يقومون بخدمته وأجرى

عليه راتباً ، واستدعى أيضاً أحد كبار أمرائه وعهد إليه بالمحافظة على بطرس الرندى ، ويقولون أيضاً — أكثر من ذلك — ، إنه بينما كان السلطان يعد العدة للرجوع إلى المدينة بعث فى طلب هذا الأمير ، حتى إذا صار فى حضرته قال له « صِلْ هذا النصرانى بما يكفيه هو ومن معه من الخمر ، ولا تقصر فيما يطلبه منها حتى لا يستشعر الحنين إلى وطنه » .

هذا ما رواه لى المترجم الذى كنت أسكن معه هادفاً من وراء ذلك إلى تعظيم مولاه السلطان ، وإلى إدخال السرور على نفسى بطيب الأحدوثة عن قشتالى من أبناء جلدتى وجلدته .

ولما مات هذا السلطان بادر خلفه إلى الأمير المسئول برعاية بطرس الرندى ، وأمر بأخذه معتزماً قتله ، غير أن ذلك الأمير فرّ مع بطرس واستخفيا عن الأعين ، فأمر بالتفتيش عليهما ، فلما جيء بهما إليه أمر بطرس الرندى بترك دينه واعتناق الإسلام ، فما استجاب له الرندى ولا سمع قالته فقطع رأسه ، وحمل المسيحيون جسده ودفنوه فى كنيسة فى القاهرة تدعى كنيسة سانت مارتا ، وأظهر كثيراً من المعجزات .

• • •

أعد يوم للفصل فى القضايا فكان كما يلى :

جيء بثلاثة رجال للقتل فسألت عما اقترفوه ، فأفضى إلىّ المترجم بأن اللصوص سرقوا فى الليلة الماضية أحد الصيارفة ، ولما كان هؤلاء الثلاثة جيرانه ولم ينتبهوا للصوص ولم يعنوا برعاية بضائع جارهم عنايتهم ببضاعتهم الخاصة فقد حكم عليهم بالموت ، فقلت له « إن يكن الأمر كذلك فإنه يبدو لى أنكم تدينون من لا ذنب له ولا جريرة ، وتأخذون البرىء بخطيئة الآثم ، وذلك

قضاء ينطوى على القسوة » .

فأجابنى المترجم « مهلا يا صاحبى ، فإننا شعب كبير العدد جداً هذا إلى أن الرب يزيدنا فى كل يوم ، فإذا لم نوقع العقوبات على كل من الجانى نفسه والنظارة لم يتأت لنا العيش ، ونحن لا نقيم العدالة فحسب ، بل نجد من الضرورى أن ننفذها بطريقة فظة لا تعرف الرحمة إليها سبيلا » .

• • •

إن أحسن وأبهى وأروع شىء يراه المرء فى القاهرة هو سوقها الذى تعرض للبيع فيه أكداس هائلة وكميات ضخمة من شتى البضائع الواردة من الهند ، لاسيما اللآلىء والأحجار الكريمة والتوابل والعطور والحرائر والبضائع التيلية ، وكل مشموم طيب الرائحة ، وليس فى القدرة تعداد جميع السلع التى يؤتى بها إلى هنا من الهند ثم توزع فى مختلف أنحاء العالم ، وهنا السوق الرئيسى لجميع تلك الأنواع التى وصفتها .

* * *

وهناك طائفة معينة من الرجال يذرعون شوارع القاهرة جيئة وذهاباً وقد ثبتوا المرايا إلى صدورهم ، وهؤلاء هم الحلاقون الذين يحلقون رؤوس المسلمين ويزينون وجوههم ، وهم يمرون فى الشوارع منادين على صناعتهم ، وكذلك بعض السود الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثانية عشرة وهم يصيحون : « من يريد الزيانة ؟ » وهؤلاء هم الذين يقومون بخدمة النساء اللائى يردن النظافة سراً فى الحمامات .

ولكل حاجة تجارها فى الشوارع يسألون عما إذا كان ثمة من يحتاج إليهم ، حتى إن الطباخين ليغدون جيئة وذهاباً حاملين المواقد والنيران وأطباق الحشى المعدة للبيع ، على حين ترى سواهم حاملين صحاف الفاكهة ،

وعدداً كبيراً من السقائين يروحون ويجيئون لبيع المياه التى يحملونها على ظهور الجمال والحمير أو فى القرب على ظهورهم ، وذلك لكثرة عدد الناس ولا سبيل إلى الماء إلا من النهر .

وفواكه الصيف ناضجة أشد النضج ، ولقسوة حرارة هذا الفصل البالغة فإن الله قد منح الناس كل ما هو ضرورى ، فحين يشتد القيظ وتستعر الحرارة تهب فى أوقات معينة نسائم قوية جداً حتى لتؤثر فى العيون ، ويبدو كثير من الناس كأنهم سكارى ، ويجدون فى هذه الفواكه خير وقاية وعلاج ، أما فيما سوى ذلك فالقطر صحى جداً ، وكل ما فيه من هواء وماء ولحوم : طيب كريم ، والإبل فى هذه النواحى شديدة الضخامة وجميلة وإن لم تكن سريعة الحركة ، أما الحمير فأكثر المطايا لطفاً وأحسنها منظراً وأسرعها فى المشى ، ويعنى القوم بتجهيزها باللجم والبراذع .